إني لأجد ريح يوسف

خالد بوسعادي








اسم الكتاب : إني لأجد ريح يوسف

المؤلف : خالد أبو شادي

التجهيز الفني : KARAM ART

الطبعة : الأولى

سنة الطبع : ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

المقاس : ١٤ × ٢٠

الناشر : دار الأندلس الجديدة

رقم الإيداع : ٢٠١٨ / ٨٠٩٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N

978 - 977-456-532-5








newandalus.book@gmail.com



يوسف أيها الصديق

كم أشتاق إلى رؤياك ..
وأدعو الله أن يمتِّعني في الجنة بلقياك
لأسمع منك تفاصيل قصتك..
وكيف واجهتَ أعاصير محنتك
كيف انتصر الأمل على الألم..
وتغلَّب العفاف على الإسفاف
وغمر الإحسان غدَرات الإخوان..
واستعلى الإيمان فوق الطغيان
كيف كنتَ الأروع حين كانوا الأسوأ ..
علِّمني كيف أكون أنت؟
كيف أحيا يوسفيًّا:
أصبر وأتقي .. أثبت وأهتدي .. أعفو وفوق الأحقاد أرتقي..
كيف أبني صرح أمتي ..
أيها الكريم ابن الكريم..
أنت مدرسة الوحي وجامعة النبوة.. ونحن تلامذتك اليوم
كلنا آذان صاغية وقلوب واعية.. آثارَك نقتفي ..
ومن دروس محنتك نستقي ..
وفي جنة الخلد عند الله نلتقي



أحاديث نبوية يوسفية

«أُعْطِي يوسف شطر الحُسْن».

صحيح الجامع رقم: ١٠٦٢

«لو لَبِثْتُ في السِّجن ما لَبِثَ يوسف، ثم أتاني الدَّاعي لأَجَبْتُه».

صحيح البخاري رقم: ٦٩٩٢

«عجِبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه - والله يغفر له - حيث أُرسِل إليه ليُستَفْتى في الرؤيا، ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبت لصبره وكرمه - والله يغفرله - أتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنت أنا لبادرت الباب».

السلسلة الصحيحة رقم: ١٩٤٥

«أكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خلِيل الله».

صحيح البخاري رقم: ٣٣٥٣

«أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

صحيح الجامع رقم: ١٢١٧

مقاطع السورة

المقطع الأول: من ملامح إعجاز القرآن الآيات (١ـ٣)

المقطع الثاني: رؤيا يوسف عليه السلام الآيات (٤ ـ ٥)

المقطع الثالث: خيوط مؤامرة الإخوة الآيات (٧-٢٠)

المقطع الرابع: فتنة امرأة العزيز الآيات (٢١ ـ ٣٤)

المقطع الخامس: يوسف خلف القضبان الآيات (٣٥ ـ ٤٢)

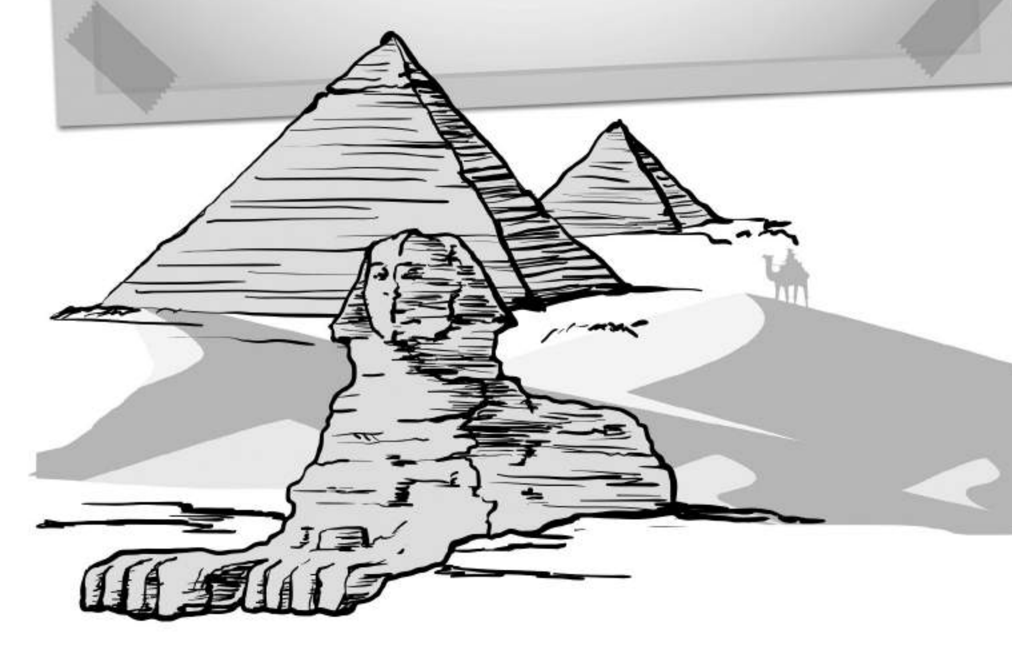
المقطع السادس: رؤيا الملك بوابة يوسف إلى المُلْك الآيات (٤٣ ـ ٥٣)

المقطع السابع: استلام الحكم الآيات (٥٤ ـ ٥٧)

المقطع الثامن: لقاء يوسف بإخوته مرة أخرى الآيات (٥٨ ـ ٩٨)

المقطع التاسع: اجتماع شمل العائلة الآيات (٩٩ ـ ١٠٢)

المقطع العاشر: خلاصة العِبَر من أحلى السور الآيات (١٠٣ ـ ١١١)



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

لا يزال القصص القرآني مصدر إلهام لكثير من العبر والدروس التي تصلح أن تكون نبراسًا لنا في الطريق، خاصة أن الأحداث تتشابه، وأحوال المسلم اليوم تستدعي استحضار أحوال الأنبياء والمرسلين، وماذا لو كانوا بيننا: كيف كانوا سيتصرفون وماذا كانوا سيفعلون؟

- القصص القرآني ليس لملء الوقت وطلب الإمتاع، بل هو للعبرة والانتفاع؛ ولذا كان القصص القرآن باعثًا للحياة في الأحداث السابقة، يستحضرها عبر آلاف السنين لتكون حاضرة حية بأحداثها وتفاصيلها، وكأنها تقع اليوم أمام عينيك، لم يغير الزمان منها شيئًا، ودقة أحداثها دقة الوحي القرآني، كل حرف منها صدق وحق.

- ومن أحسن القصص التي جاء بها القرآن سورة يوسف، وهي موضوع هذا الرسالة، وهي مجموع خواطر تتناول كل آية من آيات السورة، بعد أن أوردتها مختصرة في كتابي (جعلناه نورًا)، ثم رأيت أن أغوص في المعاني أكثر، لأستخرج الكنوز والجوهر.

- نزلت سورة يوسف في عام الحزن، وهو عام اشتدت فيه الآلام والأحزان على رسول الله ﷺ لوفاة زوجته خديجة وعمه أبي طالب؛ حتى عرف ذلك العام بـ (عام الحزن)، فنزلت هذه السورة لتعلم المسلمين كيف التعامل مع الأحزان التي ترافق الشدائد ومصاعب الحياة. ولذا صارت هذه السورة سلوى لكل مكروب، فقد حُكِي عن ابن عطاء



أنه قال: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استروح إليها، أو استراح إليها. وكيف يتسلل الحزن لمن عاش معانيها، وهي مفتاح الأمل بعد الألم، والجبر بعد الكسر، والفرج بعد الشدة، وذلك التفاؤل يتسلل إلى قلبك في سياق قصصي تشويقي رائع، ينضح بالفوائد والعبر التي تزدحم بها السورة، حتى قال ابن القيم:

«وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة، لعلنا إن وفق الله أن نفردها في مصنف مستقل».

يقول أحد الكتاب الصحفيين المشهورين:

«في حافظة دروسي المهنية أنني حضرت في كلية الصحافة بجامعة كولومبيا في نيويورك دورة تركزت المحاضرات فيها حول موضوع واحد هو: (الخبر الصحفي وعناصره)، ووقف أحد الحاضرين يومًا في قاعة الدرس يعدد أمام سامعيه ما اعتبره ضروريًّا للخبر المثالي في رأيه، وكان قوله ضمن ما قال:

«إن الخبر المثير هو ذلك الذي يحتوي على أشياء من خمسة عناصر:

شيء من الملكية، وشيء من الدين، وشيء من العلاقة بين الرجل والمرأة، وشيء من الجريمة، وشيء من الغموض».

- والعجيب أنا العناصر الخمسة في سورة يوسف، والملكية لأن الأحداث تجري في قصر العزيز وتنتقل إلى قصر الملك.

والدين: حيث نبي الله يوسف بن نبي الله يعقوب.

والعلاقة بين الرجل والمرأة في مراودة امرأة العزيز ليوسف عن نفسه.

وشيء من الجريمة في إلقاء يوسف في البئر، وجريمة مراودته عن نفسه.

وشيء من الغموض من أول القصة إلى منتهاها يجعلك في حيرة كيف ستنتهي فصول المؤامرات والمغامرات.





- **وليس عجيبًا** أن يصل البشر إلى هذه العناصر بعد مئات السنين من الخبرة الصحفية، والتي تحدِّد نوع الخبر الذي يجذب انتباه الناس، لكن من إعجاز القرآن أن تكون هذه العناصر وأكثر منها موجودة في سورة يوسف، وبصورة أعف وأجمل وأكمل وأوضح وأشوق، وفارق بين صياغة البشر والصياغة الإلهية، بين الثرى والثريا.



أسأل الله العظيم أن يجعل هذه الرسالة متعة غامرة في تدبر كتاب الله ، وأن يجعلها مصباحًا منيرًا يضيء قلوبًا أظلمت من طول المآسي وعمق الجراح، لتحسن الظن بالله وتستمسك بهداه.





المقطع الأول

من ملامح إعجاز القرآن ..

الآيات (١ ـ ٣)



١ ﴿الٓر﴾ [يوسف:١]:
تحدٍّ ! ها هي حروف اللغة بين أيديكم، فأتوا بمثل هذا القرآن، أو سورة منه، بل آية واحدة، ولن تستطيعوا.

٢ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف:١]:
الإشارة بلفظ ﴿تِلۡكَ﴾ وما فيه من معنى البُعْد، إشارة إلى عظمة الآيات وعلو مقامها، فليستحضر قلبك التعظيم والتبجيل وأنت تقرأ هذه السورة لتتفاعل معها.

٣ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف:١]:
المراد بالكتاب القرآن، والمبين مشتق من:
- فعل (بان) أي ظهر إعجازه، فالقرآن معجزة، وإعجازه في بلاغته وإخباره بالغيب وغير ذلك من وجوه الإعجاز.
- أو فعل (أبان) أي أظهر. قال الزجاج: «مُبيِّن للحق من الباطل، والحلال من الحرام».

٤ ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف:١]:
أبان لنا القرآن كل ما نحتاجه في حياتنا حتى أدق التفاصيل. قيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: قد علَّمكم نبيُّكم كلَّ شيء حتى الخِراءَة؟ قال: «أجل، لقد نهانا أن نستَقبِل القبلة لغائِطٍ أو بَوْلٍ، أو أن نستَنجِي باليمين، أو أن نستَنجِي بأقلَّ من ثلاثة أحجار، أو أن نستَنجِي برَجِيع أو بعظم».
وفي رواية: قال له بعضُ المشركين - وهم يستَهزِئون به -: «إني أرى صاحبَكم يعلِّمكم كلَّ شيء حتى الخِراءة».



٥ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف:١]:

افتخر بدينك الذي أظهره الله، ولا تخجل من شعيرة من شعائره، ففخرك الحقيقي في الوقوف تحت لوائه، واقتفاء آثار النبوة.

٦ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢]:

أنزل الله القرآن على العرب بلسانهم كي يفهموه ويعقلوه، فعلى كل داعية أن يكلِّم الناس بما يفهمون، فيستعمل لغة العصر التي توصل رسالته إليهم بوضوح، فتقوم عليهم الحجة ويتم البلاغ.

٧ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢]:

ولأنه نزل بلغتكم أيها العرب، كان أشدَّ في إقامة الحجة عليكم، وأقطع لأعذاركم في عدم العمل به من غير العرب.

٨ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]:

ليس القَصص - بالفتح - جمعَ قِصَّة كما يظن البعض؛ لكن القَصَص من قوله: قَصَّ أثره، ويقُصُّه قَصَصًا، واقتصصت الحديث أي رويته على وجهه، فقوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ أي نخبرك أحسن الخبر، وننبئك أحسن النبأ، ونحدِّثك أحسن الحديث.

٩ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]:

سورة يوسف تقاوم حملات الزيف والتشويه!

في الآية تعريض بقصص التوراة والكتب السابقة المحرَّفة التي حوت كثيرًا من الأباطيل، فقد كان النضر بن الحارث شيطانًا من شياطين قريش، وكان يسافر إلى العراق والشام لكونه تاجرًا، فيتعلم أساطيرهم ، فإذا عاد إلى مكة حدَّث الناس بها قائلًا: «بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟». قال ابن هشام: «وهو الذي

قال في ما بلغني: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣]».

١٠ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]:

هل سورة يوسف هي أحسن القصص؟! والجواب: كلا. قال الإمام ابن تيمية:

«يتناولُ كُلَّ ما قَصَّهُ في كِتَابِهِ فهو أحسن مِمَّا لم يَقُصَّه، ليس المراد أَنَّ قِصَّة يوسف أحسن ما قُصَّ في القرآن»؛ ولذا قال: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾، ولم يقل: بما أوحينا إليك هذه السورة.

١١ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]:

لماذا سورة يوسف بالتحديد؟! والجواب: لم تكن قصة يوسف عليه السلام معروفة لدى العرب قبل نزول القرآن إجمالًا ولا تفصيلًا، بخلاف غيرها من قصص الأنبياء التي كان العرب يعرفونها إجمالًا، فجاء القرآن مبينًا قصة يوسف مفصِّلًا لها، ورُوِي أن اليهود أمروا كفار مكة أن يسألوا النبي ﷺ عن السبب الذي أحَلَّ بني إسرائيل بمصر، فنزلت السورة.

١٢ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣]:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: أنزل الله القرآن على رسول الله ﷺ، فتلاه عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله .. لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾



إلى قولـه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، فتلاها رسـول الله ﷺ زمانًـا، فقالـوا: يـا رسـول الله .. لـو حدَّثتنـا، فأنـزل الله تعـالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾. [الزمر:٢٣]:

١٣ ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣]:

والغفلـة نوعـان: غفلـة إعـراض، ولا شـك أنهـا مذمومـة، وغفلـة بمعنـى الجهـل والذهـول عـن الـشّيء، وهـذه لا يسـلَمُ منهـا بـشر، ولكـن الله لم يشـأ أن يصـفَ نبيـه ﷺ بالجهـل تشريفًـا لمقامـه. قـال العلامـة القاسـمي: «والتّعبـير عـن عـدم العلـم بالغفلـة؛ لإجـلال قـدر النبـي ﷺ».

المقطع الثاني

رؤيا يوسف عليه السلام

الآيات (٤ ـ ٥)



١٤ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾[يوسف: ٤]:

جاء في الحديث

أن الرؤيا الصالحة جزء من أربعين جزءًا من النبوة، أو عشرين جزءًا، أو واحد وعشرين جزءًا، فما سر هذا الاختلاف بين الأحاديث؟!

قال ابن عبد البر: «اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع، فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفناه تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خلصت نيته في عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب».

١٥ ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾[يوسف:٥]:

عن أبي قتادة بن ربعي قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئًا يكرهه، فلينفث عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ، وليتعوذ بالله من شرها، فإنها لن تضره إن شاء الله**».الكلم الطيب رقم: ٥٠. قال أبو سلمة: إن كنت لأرى الرؤيا هي أثقل علي من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث فما كنت أباليها.

١٦ ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾[يوسف: ٥]:



صحَّ عن جابر ﵁أن رسول الله ﷺ قال:

«**إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليبصق عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثًا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه**». صحيح الجامع رقم: ٥٥١

١٧ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾[يوسف: ٥]:

رؤيا المؤمن تسرُّه ولا تغُرُّه، أي يستبشر بها لكن لا تقعِده عن العمل والأخذ بالأسباب.

١٨ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾[يوسف: ٥]:

من الحكمة كتمان الأخبار التي هي مظنة الغيرة أو الحسد.

١٩ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾[يوسف: ٥]:

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في ألا نقصَّ الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها».

٢٠ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾[يوسف: ٥]:

«**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**». صحيح الجامع رقم: ٩٤٣

٢١ ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾[يوسف: ٥]:

قال ابن العربي: «هذا يدل على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا؛ لأن نهيه لابنه عن ذكرها، وخوفه على إخوته من الكيد له من أجلها علم بأنها تقتضي ظهوره عليهم وتقدمه فيهم، ولم يبالِ بذلك يعقوب؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرًا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه».





٢٢ ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾[يوسف: ٥]:

تعليـل الأحـكام ضروري حتـى للصغـار وذلـك للإقنـاع، وكثـير مـن الأسـاليب التربويـة الخاطئـة تعتمـد عـلى إصـدار الأوامـر دون توضيـح الأسـباب، فتـورِث العنـاد والصـدام مـع الآبـاء.

٢٣ في الآيـة دليـل عـلى أنـه يبـاح للمسـلم أن يحـذِّر أخـاه المسـلم إذا خـاف عليه خطـرًا من مُعْتَـدٍ يريـد بـه شرًّا، ولا يكـون ذلـك داخـلًا في الغيبـة.

٢٤ ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾[يوسف: ٥]:

لا يغنـي حـذرٌ مـن قـدَر! لم يخـبر يوسـف إخوتـه برؤيـاه، ومـع هـذا وقـع مـا قـدَّره الله مـن طريـق آخـر.

المقطع الثالث

خيوط مؤامرة الإخوة

الآيات (٧ ـ ٢٠)



٢٥ ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[يوسف: ٧]:
كلما زادت الأسئلة زاد الفهم، وهذا أفضل بكثير من أسلوب التلقين، ويؤدي لتوصيل المعلومة بصورة أوضح مع ترسيخها في الأذهان؛ ولذا قيل لابن عباس: كيف أصبت هذا العلم؟ فقال: لسان سؤُول، وقلب عقول، وقال بعض الحكماء: ليست الإجابة هي التي تنير الدَّرب، بل السؤال.

٢٦ ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾[يوسف: ٨]:
مع أن الاهتمام بالصغير أمر فطري وطبيعي. قيل لحكيم: أي أبنائك أحبُّ إليك؟ فقال: «الصغير حتى يكبر؛ والغائب حتى يعود، والمريض حتى يُشفَى»، لكن عمى البصائر أمات الضمائر.

٢٧ ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾[يوسف: ٨]:

احذروا فرط المحبة!

قال الشيخ عبد الله العلَمي:

واحذر الناس أن يروك مُحِبًّا .. أو حبيبًا واذكر بني يعقوبا
ضلَّلوا من أحب وهو أبوهم .. ثم ظلمًا شرَّدوا المحبوبا

٢٨ ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف: ٨]:
الحسد يُعمي ويصُمُّ! انظر كيف دفعهم الحسد إلى كبائر الذنوب، فكان منهم ثلاث جرائم: استحلّوا قتل يوسف عليه السلام، ووصفوا أباهم –وهو النبي المرسل- بوصف لا يليق أبدًا، واستمرؤوا الكذب ليخدعوا أباهم.

٢٩ قال ابن الجوزي:

«رأيتُ الناس يذمون الحاسد، ويبالغون، ويقولون: لا يحسد إلا شرير، يعادي نعمة الله، ولا يرضى بقضائه، ويبخل على أخيه المسلم، فنظرت في هذا، فما رأيته كما يقولون.

وذاك أن الإنسان لا يحب أن يرتفع عليه أحد؛ فإذا رأى صديقه قد علا عليه، تأثر هو، ولم يحب أن يرتفع عليه، وودَّ لو لم ينل صديقه ما ينال، أو أن ينال هو ما نال ذاك، لئلا يرتفع عليه، وهذا معجون في الطبع، ولا لوم على ذلك؛ إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل.

قال الحسن: ليس من ولد آدم أحد إلا وقد خُلِق معه الحسد، فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل، لم يتبعه شيء».

٣٠ ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[يوسف: ٨]:

ليست الكثرة دائمًا علامة خيرية أو اجتماع على الحق، أحيانًا تكون عكس ذلك.

٣١ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[يوسف: ٨]:

قارن بين قولهم وقول يوسف لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ﴾[يوسف: ٤]، لتعرف سر حب يعقوب ليوسف، فلم يكن تفضيله له عن هوى أو جمال شكل، فإن مقام النبوة منزَّه عن كل هذا، لكن لحسن أدبه ورجاحة عقله، وظهور أمارات الاصطفاء والاجتباء عليه.

٣٢ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[يوسف: ٨]:

الهداية هبة ربانية! تربيتهم في بيت من بيوت النبوة، لم تكن




سببًا في هداية قلوبهم وصلاحهم.

٣٣ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۞ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾[يوسف: ٨-٩]:

القوة والكثرة تورِث صاحبها الغرور، وتغريه بالظُّلم والعدوان.

٣٤ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[يوسف: ٩]:

انظر كيف خدعهم الشيطان! قال السعدي: «فقدَّموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطًا من بعضهم لبعض».

٣٥ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾[يوسف: ٩]:

قد تختلف أحوال الإخوة مع اتحاد الأصل والبيئة، فمع أن كلَّهم أبناء نبي، لكن شتان بين يوسف وإخوته!

٣٦ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾[يوسف: ٩]:

وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضة.. على المرء من وقع الحسامِ المهنَّد

٣٧ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾[يوسف: ٩]:

لا يلزم أن يكون ابن النبي نبيًّا، ولا ابن التقي تقيًّا، قد يطيب الأصل ويفسد الفرع: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٧٢].

٣٨ ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾:

الازدواجية أسلوب حياة!

يغريك الشيطان بارتكاب الكبائر، ثم يخدِّرك ببعض النوافل!

اسفِكْ دم أخيك ثم توضأ للصلاة عليه!





اغصِبْ ماله ثم أطعِم عياله!

كُلِ الرشوة وانهب المال العام ثم حجَّ كل عام!

لا بأس بظلم أخيك ما دامت لك صدقة تحميك!

وقليل الدم تمسحه دمعة ندم!

يا هذا .. إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدّى الفريضة!

٣٩ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾[يوسف: ١٠]:

أول صور لطف الله تعالى بيوسف عليه السلام: أن أنطق أحد إخوته برأي كان سبب إنقاذه من القتل، ومع أنه رأي واحد بين الأغلبية، إلا أنهم جميعًا استمعوا إليه وأنفذوا رأيه.

٤٠ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[يوسف: ١٠]:

كلمة واحدة جعلها الله سبب إنقاذ يوسف من القتل، فلا تستهِن بكلمة حق تنطق بها، أو نصيحة تُدلي بها، لعلها تكون حجر زاوية في إنقاذ نفس كما كانت مع يوسف.

٤١ ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[يوسف: ١٠]:

التاريخ يتكرر وسيتكرر!

ما الفارق بين تآمر إخوة يوسف، وتآمر قريش على النبي ﷺ في دار الندوة ؟

ما الفارق بين حرمان يوسف من أبيه وداره، وحرمان النبي ﷺ من أحبِّ بلاد الله إليه؟

ما الفارق بين العصبة التي تآمرت على يوسف، وعصبة اليهود وقبائل العرب الذين تآمروا على النبي ﷺ؟



الطريق واحد، والعقبات واحدة، والعاقبة كذلك واحدة: دائمًا للمتقين، وهي بشارة للنبي ﷺ وأتباع النبي، فقد نزلت سورة يوسف قبيل الهجرة إلى المدينة، لتبشر للمؤمنين بفتح قريب ونصر عجيب في بلد جديد.

٤٢ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾[يوسف: ١٣]:

تعلموا حسن الأدب والتوجيه غير المباشر من يعقوب عليه السلام، فلم يقل: أنتم تحسدون أخاكم وتحقدون عليه، فيتَّهِمهم صراحة بما أرادوا، فهذا مما يرسِّخ العداوة في نفوسهم، لكنه أخبرهم أنه يخاف تقصيرهم (غير المتعمد) في حفظ يوسف.

٤٣ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾[يوسف: ١٣]:

الحزن يكون على ما فات، والخوف مما يقع في المستقبل، وقد اجتمع الشعوران في قلب يعقوب عليه السلام تجاه يوسف؛ مما يدل على علو مكانة يوسف في قلب أبيه.

٤٤ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾[يوسف: ١٣]:

الابن البار يتقي ما يُحزِن أباه!

قال ابن عاشور: «وإنما ذكر يعقوب عليه السلام أن ذهابهم به غدًا يُحِدث به حزنًا مستقبلًا؛ ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به؛ لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه».

٤٥ ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾

[يوسف: ١٣]: لقَّنهم حجتهم وعذرهم الذي سيعتذرون به إليه،

وصدق الشاعر حين قال:

احفظ لسانك أن تقول فتُبتَلى .. إنّ البلاء مُوكَّل بالمنطق

فإن قال قائل: لقد صدرت هذه الكلمة من يعقوب عليه السلام وهو نبي؟ فالجواب: ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

٤٦ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾

[يوسف: ١٥]: إجماع عجيب وتواطؤ على هذه الجريمة البشعة: إلقاء طفل في قاع بئر، مع تركه فريسة للموت جوعًا.

٤٧ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

[يوسف: ١٥]: ليس هذا وحي النبوة، فيوسف لم يبلغ بعد، بل كان غلامًا، لكنه وحي إلهام، وقد يقع مثله للصالحين تثبيتًا من الله، وبشارة للمظلوم بأن الفرج قريب.

٤٨ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾[يوسف: ١٦]:

قال القشيري: «تمكين الكذّاب من البكاء سمة خذلان الله تعالى إياه، وفي الخبر: إذا كمل نفاق المرء ملك عينه حتى يبكي ما شاء».

٤٩ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾[يوسف: ١٦]:

لا تنخدع بحيل المحتالين! قال الشعبي: كنت جالسًا عند شريح القاضي إذ دخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وهو غائب، وتبكي بكاء شديدًا، فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلا مظلومة. قال: وما علمك؟ قلت: لبكائها. قال: لا تفعل؛ فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون، وهم له ظالمون.

٥٠ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[يوسف: ١٧]:

الكاذب متَّهَم من الكل، حتى من نفسه التي بين جنبيه!



٥١ ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[يوسف: ١٨]:

قصة القمصان الثلاثة! قال الإمام الشَّعْبي: «قصة يوسف كلها في قميصه..

☜ وذلك أنَّهم لَّما ألقوه في الجبّ، نزعوا قميصه، ولطَّخوهُ بالدَّم، وعرضوه على أبيه.

☜ ولَّما شهد الشَّاهد قال: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٧٢].

☜ وقال: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣]، ولما أتى البشير إلى يعقوب بقميصه، وألقى على وجهه، فارتدَّ بصيرا».

٥٢ ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[يوسف: ١٨]:

علامة أخرى على قسوة قلوبهم تجاه يوسف، أنهم نزعوا قميص أخيهم الصغير ليستعملوه في ترويج كذبهم، وتركوه في العراء بلا قميص.

٥٣ ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾[يوسف: ١٨]:

ليست هناك جريمة كاملة! هذا الدم المراق فأين القميص الممزَّق؟!

٥٤ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[يوسف: ١٨]:

علم يعقوب أن الذئب لم يأكل يوسف؛ لأن الكواكب لما تسجد له بعد! كن دائمًا بوعد الله أوثق منك مما تراه عيناك !

٥٥ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[يوسف: ١٨]:

التنكير في ﴿أَمْرًا﴾ إما للتعظيم والتفخيم، كأنه يقول: أمرًا عظيمًا ارتكبتموه، أو للإبهام، أي أمرا من الأمور المستورة تحت طي الكتمان.





٥٦ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾[يوسف: ١٨]:

ما أعظم حلم الأنبياء وأحسن أخلاقهم! رغم احتراق قلب يعقوب على يوسف، لم يصدر منه إلا ألين الكلام مع هؤلاء اللئام.

٥٧ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف: ١٨]:

قال سفيان الثوري عن بعض أصحابه: «ثلاث من الصبر: ألا تحدِّث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكِّي نفسك».

٥٨ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾[يوسف: ١٨]:

لولا الله ما صبر أحد، ولولا استعانة يعقوب بربه ما تحمَّل فراق يوسف.

٥٩ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾[يوسف: ١٨]:

قال الإمام الرازي:

«لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع، وهي قوية.

والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا.

فكأنهما في تحارب وتجالد، فما لم تحصل إعانته تعالى، لم تحصل الغلبة، فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ [يوسف: ١٨] يجري مجرى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥].

٦٠ ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨]:

هذه من فراسة يعقوب الذي كان واثقًا أنهم كاذبون في هذا الوصف، وأنهم هم الذين ألحقوا الضرر بيوسف لا الذئب، فقصتهم لم تقع، ووصفوا له حالًا لم تكن.







٦١ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨]:

لماذا لم يسعَ يعقوب في البحث عن يوسف رغم علمه بأنه حي؟! قال الإمام الرازي في إجابته: «علِم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة، وأن أمره سيعظم بالآخرة، ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده، وما رضي بإلقائهم في ألسنة الناس، وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر، وقع الأب في العذاب الشديد؛ لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم، وإن انتقم فإنه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه».

٦٢ ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[يوسف: ١٩]:

قال ابن كثير: «أي عليم بما فعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدَر سابق، فترَك ذلك ليمضي ما قدَّره وقضاه، وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته».

٦٣ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[يوسف: ٢٠]:

أكرم الخلق نسبًا وشرفًا، وسليل الكرماء ونسل الأنبياء يُباع كالعبيد! وهذا والله من هوان الدنيا على الله، فلو كانت ذات قدر لديه، لما حرم منها أكرم الخلق عليه.

٦٤ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[يوسف: ٢٠]:

في الحديث: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى**



كافرًا شربة ماء»، الدنيا لا تساوي ريشة ناموسة! والدليل: أن الكافر عدو الله، ولا يُعطَى العدو إلا الشيء الخسيس الذي لا قدر له.

٦٥ ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[يوسف: ٢٠]:

لا تجعل للدنيا في قلبك قدرًا، ولا تكن عند نعيمها عبدًا، فإنك إن فعلت كان قدرك عند الله أهون منها،

وصدق القائل:

إذا كان شيءٌ لا يساوي جميعُه ... جناحَ بعوض عند مَنْ أنتَ عبده
وأَشغَل جزءٌ منه كُلَّك ما الذي ... يكون على ذا الحال قَدْرُك عنده

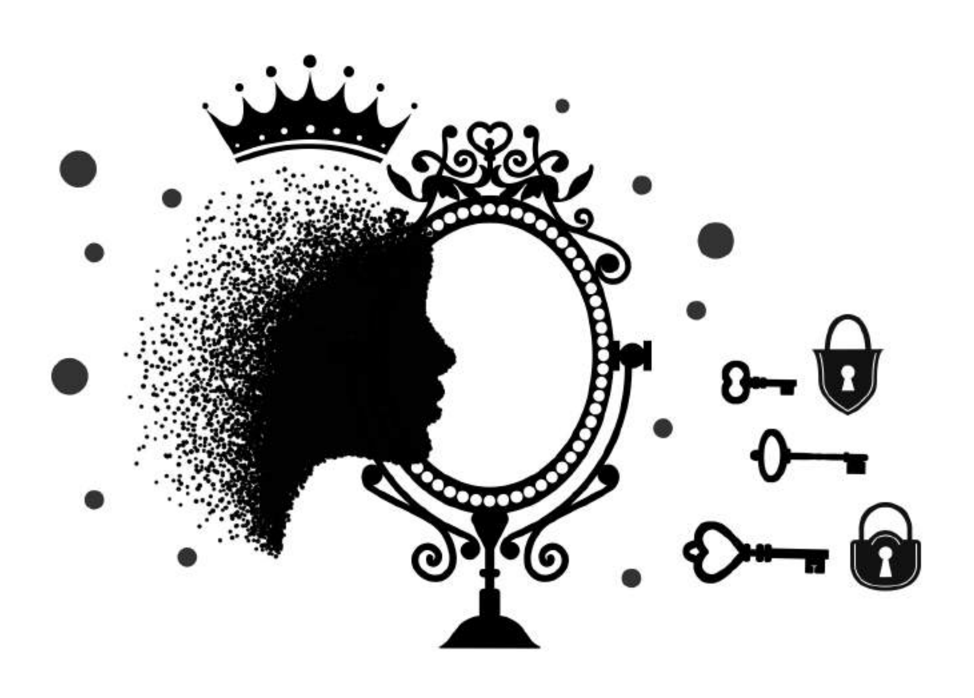
٦٦ ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنِۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾[يوسف: ٢٠]:

رسالة لمن تعجَّب من جريمة إخوة يوسف! قال ابن الجوزي: «كان بعض الصالحين يقول: والله! ما يوسف -وإن باعه أعداؤه- بأعجب منك في بيعك نفسك، بشهوة ساعة من معاصيك».

المقطع الرابع

فتنة إمراة العزيز

الآيات (٢١ ـ ٣٤)



٦٧ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]: المثوى هو المكان الذي يأوي إليه، ولاحظ لم يقل: أكرميه، بل أكرمي المكان الذي ينزل فيه، فما أعظم هذا الإكرام!! وهذا من لطف الله بيوسف، لطف ما بعده لطف.

٦٨ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٢١]:

الابتلاء أول درجة في سُلَّم التمكين ؛ لذا قال الله بعد ذكر إلقاء يوسف في الجب وبيعه بثمن بخس: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

٦٩ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]:

أي تمكين هذا الذي ترتَّب على وجود يوسف في أغلال العبودية؟! والجواب: رُبَّ منحة ساقها الله من محنة، فلولا هذه العبودية لما كان السجن، ولولا السجن لما عرف يوسف الساقي، ولولا الساقي لما عرفه ملك مصر، ولولا ملك مصر ما صار يوسف على خزائن الأرض، فهذه حلقات متصلة من الأحداث، ووقوع أول حدَث منها إعلان عن بدأ مسلسل أحداث التمكين.

٧٠ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]:

جاءت الجملة بالسياق الاسمي، ولم ترد بالسياق الفعلي، فلم يقل الله: (ويغلب الله)، وذلك لأن هذا الحكم قانون لا يتبدل مع يوسف عليه السلام أو مع غيره.

٧١ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]:

عجيب أن تأتي هذه الآية عقب ذكر بيع يوسف كعبد يخدم في قصور الملوك، ففي أشد اللحظات قسوة يأتي ذكر أعظم البشارات، وكأن الله يختصر القصة المطوَّلة للابتلاء والتمكين في آية واحدة؛ لتغرس اليقين بموعود الله وسط الأعاصير ووقت الزلزلة.

٧٢ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]:

الناس لا يرفعون ولا يضعون، ولا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، ولا يقرِّبون ولا يُبعِدون؛ لأن الأمر كله بيد الله.

٧٣ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]:

في قصة يوسف دائمًا تخالف النهايات البدايات، فلما أحبَّه أبوه أُلقِي في البئر، ولما أراد إخوته خفضه ارتفع، ولما أرادت امرأة العزيز إذلاله أعزه الله، والسبب: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

٧٤ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]:

قال أبو السعود: «لا يعلمون أنَّ الأمر كذلك، فيأتون ويذرون زعمًا منهم أنَّ لهم من الأمر شيئًا، وأنَّى لهم ذلك! وإن الأمر كله لله عز وجل، أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا لطفه».

٧٥ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]:

تكرَّر في سورة يوسف قولُ ربي: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في ثلاث آيات رقم: ٢١، ٤٠، ٦٨، ولم يتكرر نفس هذا التكرار في أي سورة أخرى، تذكيرًا لنا بخفي لطف الله وعجيب أقداره.

٧٦ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

[يوسف: ٢١]: قال ابن الجوزي:

«ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٖ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٖ﴾[يوسف: ٢٠]، امتدت أكفهم بين يديه بالطلب يقولون: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]».

٧٧ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمٗا وَعِلْمٗا﴾ [يوسف: ٢٢]:

المراد بالحُكْم هنا الحكمة، والحكمة هي الإصابة في القول والعمل، والمراد بالعلم: علم زائد على النبوة، ومنه علم تأويل الرؤى، والإحاطة الواسعة بشؤون الدين والدنيا، وتنكير: ﴿وَعِلْمٗا﴾ إشارة لتعظيم هذا العلم.

٧٨ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمٗا وَعِلْمٗا﴾[يوسف: ٢٢]:

من لا حُكم له على نفسه لا حكم له على غيره!

قال القشيري:

«من جملة الحُكْم الذي آتاه الله نفوذ حكمه على نفسه حتى غلَب شهوته، وامتنع عما راودته تلك المرأة عن نفسه، ومن لا حُكم له على نفسه فلا حكم له على غيره».

٧٩ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمٗا وَعِلْمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]:

قال الشيخ عبد الله العلمي: «قاعدة كلية مطّرِدة، وهي أن كل محسن يؤتيه الله حكماً وعلماً على قدر إحسانه، ممن كان وممن هو كائن، وممن سيكون وسوف يكون، فليعتبر بذلك القارئون والسامعون».

٨٠ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢]:



وعْدٌ من الله لا يتخلف عن أي محسن، فكلُّ من أحسن في أقواله وأعماله أحسن الله جزاءه، ومن ذلك قول الحسن: «من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله».

٨١ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[يوسف: ٢٣]:
كانت محنة يوسف مع امرأة العزيز أشد من محنته مع إخوته، وصبره عليها أعظم أجرًا، لأنه صبر اختيار مع وجود دواعي السقوط الكثيرة، وأما محنته مع إخوته، فصبره فيها صبر اضطرار، وليس له إلا الصبر عليها، طائعًا أو كارهًا.

٨٢ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾[يوسف: ٢٣]:
الأصل في الأعراض الستر وعدم التصريح. قال أبو حيان: «ولم يُصَرِّحْ باسمها، ولا بامرأة العزيز، سِترًا على الحُرُم».

٨٣ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾[يوسف: ٢٣]:
إيجاز شديد لذكر خطوتين: (تغليق الأبواب، والإغراء بالقول)، وفيه أدب قرآني باختصار الكلام وعدم الإطالة في سرد التفاصيل المحرِّكة للغرائز.

٨٤ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾[يوسف: ٢٣]:
المعاصي المخجلة والفواحش المزرية لا تُتعاطَى إلا في الخفاء، لخوف صاحبها من انكشاف أمره وفضيحته بين الناس أكثر من خوفه من انكشاف أمره وفضيحته عند الله.

٨٥ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[يوسف:٢٣]:
تدلُّ الآية على لزومِ ردِّ الجميل والمكافأة على الإحسان، وأنَّ من



قصَّر في ذلك كان من الظالمين.

٨٦ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[يوسف:٢٣]:

هنا تقرير حقيقة قرآنية! ما أفلح ظالمٌ في تاريخ البشرية قط، وأول الظلم ومنشؤه وأقبحه: ظلم العبد نفسَه.

٨٧ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[يوسف: ٢٤]:

قال ابن تيمية: «وهو برهان الإيمان الَّذي حصل في قلبه، فصرف الله به ما كان همَّ به، وكتب له حَسَنَة كامِلَة».

٨٨ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾[يوسف: ٢٤]:

متى ينقلب الهمُّ بالسيئة إلى حسنة؟! الإجابة في الحديث: «**قالت الملائكة: يا رب ذاك عبدك يريد أن يعمل بسيئة وهو أبصر به، فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرّاي**». صحيح الجامع رقم: ٤٣٥٦.

٨٩ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

[يوسف: ٢٤]: والصحيح في تفسيرها أن الكلام تم عند قوله: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾، ثم الاستئناف بقوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾، ولولا في لغة العرب حرف يدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، كأن تقول: لولا مرضي لزُرْتُك، فأنا أعتذر أني لم أزرك بسبب مرضي، فامتنعت الزيارة لوجود المرض، وكذلك امتنع الهمُّ من يوسف بسبب وجود برهان ربه.

٩٠ ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[يوسف: ٢٤]:

روايات باطلة! أن البرهان هو أن يوسف رأى صورة أبيه



يعقوب في سقف البيت عاضًّا على إصبعه، أو أن يوسف رفع رأسه إلى سقف البيت، فرأى مكتوبًا عليه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فهذه كلها من الإسرائيليات.

٩١ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ [يوسف: ٢٤]:

إذا جاهدت نفسك بالانصراف عن السوء والفحشاء فترة من الزمن، كافأك الله وأمر السوء والفحشاء أن ينصرفا عنك.

٩٢ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]:

احفظ الله يحفظك! من كان له رصيدٌ سابق من الطاعات حفظه الله بما نال من الحسنات، فإذا قدَّمت الصدق في الخلوات والإخلاص بخفي الأعمال الصالحات، حماك الله من السقوط في بئر الفواحش والمنكرات.

٩٣ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ [يوسف: ٢٤]:

في الآية دليل على عصمة يوسف وبراءته من الهَمِّ بالسوء، فلم يقل أن الله صرفه عن السوء والفحشاء، فهذا معناه أن يوسف كان متجِّهًا نحو السوء، وهو ما لم يحدث، بل أخبر الله أن السوء والفحشاء كانا متوجهين إلى يوسف، فصرفهما الله عنه.

٩٤ ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ [يوسف: ٢٤]:

قال ابن مفلح: «ولا يُبتَلى بالعشق غالبًا إلا من غفل قلبه عن الله وعن ذكره وعن أمره ونهيه. قال تعالى في حق يوسف:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ



﴿عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، يدل ذلك على أن الإخلاص سبب لدفع السوء والفحشاء، فالقلب إذا امتلأ من ذلك استحلاه على كل شيء، وتغذَّى به، واستغنى به عما سواه».

٩٥ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤]:

داء العشق ودواؤه!

قال ابن عقيل: قال بعض الحكماء: «ليس العشق من أدواء الحكماء، إنما هو من أمراض الخلفاء الذين جعلوا دأبهم ولهَجَهم متابعة النفس، وإرخاءَ عنان الشهوة، وإفراط النظر في المستحسنات من الصور، فهنالك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس، ثم تألف، ثم تتوق، ثم تتشوق، ثم تلهج فيقال: عشق، والحكيم من استطال رأيه على هواه، وتسلطت حكمته أو تقواه على شهوته، فرعونات نفسه مقيدة أبدًا، كصبي بين يدي معلِّمه، أو عبدٍ بمرأى سيده، وما كان العشق إلا لأرعن بطّال، وقلَّ أن يكون في مشغول ولو بصناعة أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حكمية؟ فإنها صارفة عن ذلك».

٩٦ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ [يوسف: ٢٤]:

أمام أعاصير الفتن إياك إياك أن تركن لسابق صلاحك أو شهرة عبادتك. فلا عاصم إلا الله، فاستغث به، واسأله النجاة.

٩٧ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]:

من دلائل براءة يوسف! قال الإمام الزمخشري: «ولو وُجِدَت من يوسف عليه السلام أدنى زلة، لنُعِيَت عليه، وذُكِرت توبته واستغفاره، كما نُعيَت على آدم زلته، وعلى داود، وعلى نوح،

وعلى أيوب، وعلى ذى النون، وذُكِرت توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى الله عليه وسُمِّي مخلصًا، فعُلِم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وجاهد نفسه مجاهدة أولى القوّة والعزم، حتى استحق من الله الثناء في ما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومُصدِّق لها، ولم يقتصر على استيفاء قصته، بل ضرَب سورة كاملة عليها؛ ليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار، والتثبت في مواقف العثار».

٩٨ ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾[يوسف: ٢٥]:

إذا كنت خاليًا، وحاصرتك الشهوة، فاهرب على الفور، وابحث عن الباب.

٩٩ ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾[يوسف: ٢٥]:

مهما بلغت درجة صلاحك وعلمك، فاهرب من الفتن ومن كل ما أدّى إليها، فهذا فرار الشجعان، وهو فرار محمود.

١٠٠ ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف: ٢٥]:

قال البقاعي: «ولم يقل: سيدهما؛ لأن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يدخل في رِقٍّ (وإنما اشتُرِي ظلمًا)، ولأن المسلم لا يُملَك وهو السيد (فلا سيادة لكافر على مسلم)».

١٠١ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]:

قال الآلوسي: «حبها الشديد ليوسف عليه السلام حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع، وذلك لأنها بدأت بذكر السجن

وأخَّرت ذكر العذاب؛ لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وأيضًا إنها لم تذكر أن يوسف عليه السلام يحب أن يقابل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكرًا كليًّا صونًا للمحبوب عن الذكر بالشر والألم».

١٠٢ ﴿ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ [يوسف: ٢٥]:

قال القشيري: «فذكر الأهل هاهنا غاية تهييج الحمِيّة، وتذكيرٌ بالأنفة».

١٠٣ ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٥]:

يدل على حرص المرأة على حياة يوسف، لكي لا يفكِّر العزيز في قتله، وهذا غاية الدهاء منها، أن تخيِّره بين أمرين ليس فيهما المساس بحياة يوسف.

١٠٤ ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف: ٢٦]:

دافع عن أبشع تهمة بأربع كلمات فحسب، فالصادق واثقٌ في نفسه، متوكِّلٌ على ربه.

١٠٥ ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف: ٢٦]:

لم يسبقها يوسف بالكلام سترًا لها وصيانة لعِرضها، فلما اتهمته زورًا اضطر للدفاع عن نفسه.

١٠٦ ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ [يوسف: ٢٦]:

ليس للفاسق حرمة! قال الإمام القشيري: «أفصَح يوسف عليه السلام بجُرمِها، إذ ليس للفاسق حرمة يجب حفظها».

١٠٧ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ [يوسف: ٢٦]:

قال الإمام الرازي: «إنَّما قال: مِنْ أَهْلِهَا ليكون أَوْلى بالقَبول في

حقِّ المرأة؛ لأنَّ الظَّاهِر مِن حال مَنْ يكون مِن أقرباء المرأة ومن أهلِها ألا يقصِدَها بالسوء والإضرار».

١٠٨ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

[يوسف: ٢٦]: كان من فطنة الشاهد، ومن لطف الله بيوسف أن بدأ بالاحتمال الذي يبرِّئ المرأة، مع علمه المسبق أنها مذنبة، وذلك حتى لا يتهمه أحد بأنه متحيِّز ضدها، أو أنه يُصدِر قراره عن انطباع سابق.

١٠٩ ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف: ٢٨]:

تعوِّض المرأة ضعفها بلجوئها إلى الكيد، والكيد موجود في الرجال والنساء، لكن النساء أخفى كيدًا وأنفذ حيلة، ورغم أن الخطاب لامرأته يقتضي قوله: إنه من كيدك، لكنه استعمل صيغة الجمع، إشارة إلى أن هذه طبيعة مغروسة في جميع النساء.

١١٠ ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]:

بين كيد النساء وكيد الشيطان! وصف العزيز كيد النساء بأنه عظيم، بينما وصف الله كيد الشيطان بأنه ضعيف، ولا يلزم من ذلك أن كيد النساء أقوى من كيد الشيطان، بل الحق أن كيد الشيطان أقوى، وكيد النساء ما هو إلا جزء من كيد الشيطان، وناشئ عن وساوسه.

١١١ ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾

[يوسف: ٢٩]: ما معنى الاستغفار إن لم يقترن بتوبة؟ والتوبة تقتضي ترك مقدمات الذنوب، والخلوة من هذه المقدمات

وكذلك التبرج، وبقاء هذه المقدمات مع طلب الاستغفار حرث في بحار وعلامة استهتار.

١١٢ ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]:

والخاطئ غير المخطئ، فالخاطئ هو الذي تعمَّد الخطأ لا الذي وقع فيه رغمًا عنه، وقد خطَّطت المرأة ودبَّرت وغلَّقت وتهيَّأت في سبيل أن تظفر بهذا الذنب؛ فلذا خاطبها بهذا الوصف.

١١٣ ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]:

لماذا لم يقل من الخاطئات؟! والجواب: لأن المراودة تقع غالبًا من الرجال، وقلَّ أن تراود امرأة رجلًا، فكان في كلام العزيز مزيد تقريع وتوبيخ لامرأته.

١١٤ ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠]:

في كلمة ﴿فَتَىٰهَا﴾ إشارتان:

الأولى: عيب على امرأة العزيز أن تفعل هذا مع فتى يصغُرها.

الثانية: فتى بمعنى مملوك يعمل في خدمتها، فكيف تُنزِل نفسها إلى من دونها منزلة ومكانة؟!

١١٥ ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠]:

نِعم الأدب هذا الذي سار عليه المصريون القدماء في تسمية العبد: (فتى)، وهو من أخلاق الإسلام، ففي الحديث: «**لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي**» صحيح الجامع رقم: ٧٧٦٥.

١١٦ ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]:

﴿شَغَفَهَا﴾: أي وصل حبه إلى شغاف قلبها، أو أن حبها له

أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب، وصار حجابًا بينها وبين ما سواه، فلا ترى غيره، ولا يخطر ببالها إلا إياه.

١١٧ ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[يوسف: ٣٠]:

قيل لهند بنت الخُسِّ إحدى أميرات العرب -وقد زنت بعبدها-: لم زنيت وأنت سيدة قومك؟! فقالت: قرب الوساد وطول السُّهاد، تريد قرب مضجعه منها، وطول مسارَّته (حديثه معها في السِّر) إياها.

١١٨ ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[يوسف: ٣٠]:

أقسام الحب ستة! قال ابن القيم:

«**فالمحبة النافعة ثلاثة أنواع**: محبة الله، ومحبة فى الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع، عليها مدار محاب الخلق».

١١٩ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف: ٣٠]:

قال ابن القيم:

«هذا الكلام متضمن لوجوه من المكر.

أحدها: قولهن: امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها ولم يسموها باسمها، بل ذكروها بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.



الثاني: أن زوجها عزيز مصر، ورئيسها، وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها، وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من تطلب ذلك من الأجنبي البعيد.

والخامس: أنها هي المراوِدة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أنه أعفُّ منها وأبر، وأوفى، حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع، عفافًا وكرمًا وحياء، وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالا واستقبالا، ولم يقلن: راودت فتاها.

التاسع: قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]: أي إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح، دليل على أنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تُساعَد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها».

١٢٠ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]:

كانوا أضل منها، لكنهن قلن ذلك احتيالًا لرؤية يوسف. قال ابن إسحاق: «بل بلغهن حُسْن يوسف، فأحببن أن يَرَيْنَه، فقُلْن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته».



١٢١ ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣١]:

رأى النسوة جمال يوسف، فلم يشعرن بألم تقطيع أيديهن، فكيف بك إذا رأيت غدًا جمال خالق يوسف؟! ولذا كان من الدعاء النبوي: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك» صحيح الجامع رقم: ١٣٠١.

١٢٢ ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]:

تقول امرأة العزيز: انظرن ما فعلتن بأنفسكن من جراء نظرة واحدة، فكيف أُلام وأنا أعيش مع هذا الجمال صباح مساء؟!

١٢٣ ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]:

في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ مرَّ بيوسف عليه السلام عند مروره بالسماء الثالثة في رحلة المعراج، فقال: «**فإذا هو قد أُعطِي شَطْر الحُسن**» صحيح الجامع رقم: ٢٧.

١٢٤ ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف: ٣٢]:

الهوى لا ينكتم، والعاشق لا بد أن يفتضح، ولا يصبر قلب عاشق على كتمان المشاعر حتى يبوح بما في الضمائر.

١٢٥ ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ ﴾

[يوسف: ٢٣]: جلد الفجار في نيل الأوزار وشراء النار! قسمان اثنان في آية واحدة: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ ﴿ وَلَئِن ﴾ مما يدل على تصميم المرأة على المضي قدُما في فسادها وإفسادها.

١٢٦ ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢]:

هنا يظهر اختلال الموازين، فإن الصَّغار بدخول السجن في هذه الحالة هو قمة العزة والفخار، وأما الاستجابة لطلب المرأة

الفاجر، فهو الصغار الحقيقي.

١٢٧ ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنون المثقلة، ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالنون المخففة؛ لأن سجنه بيدها، أما جعله صاغرًا فليس إليها، فقد رفع الله شأنه في العالمين، وجعل له سورة باسمه في كتابه إلى يوم الدين.

١٢٨ ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]: في الآية تصوير لحالة الزوج المزرية، وتحكم الزوجة فيه رغم علمه بجريمتها، مع عجزه عن مقاومة سلطان جمالها ومنصبها، حتى في أعظم المواقف التي تؤجِّج قلوب الرجال غيرة وحمية.

١٢٩ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]: يفضِّل الصالحون بذل حريتهم على أن يمسَّ أحدٌ دينهم.

١٣٠ ﴿يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

أسند الفعل إلى جميع النساء مع أن الداعية واحدة، إما لأنهن خوَّفنه من مخالفة أمر امرأة العزيز وأمرنه بمطاوعتها، أو لأن كلًّا منهن دعته إلى نفسها تصريحًا أو تلميحًا.

١٣١ ﴿يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

صيغة المضارع تدل على أن عروض الإغراء مستمرة، ومحاولات مراودته عن نفسه لم تتوقف في هذه البيئة الموبوءة!

١٣٢ ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

هكذا تنقلب الموازين إذا نزل الإيمان في قلوب المؤمنين.

١٣٣ ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

عندما تكون المساومة على الدين قد يكون السجن خيارَ المؤمنين.

١٣٤ ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

ولم يقل: الزنا، فالمؤمن كامل العفاف حتى في لسانه.

١٣٥ ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

هذا مقام الصبر.

﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[يوسف:٣٣]:

وهذا مقام الاستغاثة.

الأعمال القلبية هي زاد الأعمال البدنية، ولولاها ما ثبت يوسف.

١٣٦ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

قد يكون السجن ثمن إجرام، لكن أحيانًا يكون ثمن ثبات على الحق وضريبة الإيمان.

١٣٧ ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

قد يخونك قلبك في مواجهة الفتن والمغريات، فسَل الذي يملك أمر القلوب أن يلهمك الثبات.

١٣٨ ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

أليس امرأة العزيز وحدها هي من راودته عن نفسه؟! والجواب: كلا، بل حاولت غيرها من النساء التعرض له ومرادوته عن نفسه بعدما افتُتِنّ بجماله.

١٣٩ ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]:

قال قتادة: «أجمع أصحاب محمد ﷺ أن كل من عصى الله، فهو جاهل».

١٤٠ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [يوسف: ٣٤]:

ما دمت تدعو فأنت بخير! قال زياد بن أبي زياد: «أنا من أن أُمْنَع الدعاء أخوف من أن أُمْنَع الإجابة».

١٤١ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ ﴾ [يوسف: ٣٤]:

لم يقل: فأدخله السجن! لا تنظر إلى ظلمة المحنة وما أصاب دنياك، بل انظر إلى الخير الذي وراءها وما أفاد دينك.

١٤٢ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٤]:

قانون رباني! من رجع إلى الله بصِدق الاستغاثة تداركه ربه بعاجل الإغاثة.

١٤٣ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٤]:

السميع الذي لا يخفى عليه دعاء داعيه وضراعة مستغيثيه، ولو كان همسًا أو مناجاة قلب، بل إن الدعاء الخفي أحب إليه وآثر من الدعاء في العلن.

١٤٤ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٤]:

وهو العليم بخفايا القلوب ومكنونات الضمائر، لما علم ما في قلب يوسف من تعفف عن الفاحشة، صرفها عنه، فإن صلاح الظاهر كثيرًا ما يكون ثمرة طهارة الباطن!

المقطع الخامس

يوسف خلف القضبان

الآيات (٣٥ ـ ٤٢)



١٤٥ ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٥]: فساد ضارب بجذوره في أرض هذا البلد، ومجتمع يموج بالفحشاء، فكان سجن يوسف بإلزام المرأة لزوجها بذلك، وكان لا يرد لها طلبًا، مع أن جريمتها تمس شرفه وعِرضه، ورغم ظهور آيات براءة يوسف وكذِبها.

١٤٦ ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٥]: كان قرار سجن يوسف سياسيًّا لا قضائيًّا، فقد كان القوم موقنين ببراءته؛ لذا لم يحكموا عليه بالسجن لمدة محدَّدة، لكن ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾.

١٤٧ ﴿ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٥]:

وذلك كي تنقطع أخباره، ويتناسى الناس أمر هذه الفضيحة، فإن الخبر يُشاع مع وجود أسبابه، فإذا عُدِمَت أسبابه نُسِي، وهو ما يُسَمّى اليوم: التعتيم الإعلامي أو حظر النشر في القضايا.

١٤٨ ﴿ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٥]:

تنبيه رباني لطيف إلى أن السجن لا يدوم، وقيد الأبرار سينكسر، ودوام الحال محال، والحبل إذا اشتد انقطع، وأن الأمر صبر ساعة، والفرَج على بعد رمية حجر.

١٤٩ ﴿ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٥]:

القضاء الفاسد! أمَر القاضي بسجن يوسف بغير دليل، ليتحول إلى ألعوبة بيد امرأة العزيز، معلنًا أن الفساد عمَّ البلاد، وأن انهيارها مسألة وقت.

١٥٠ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]:

أيُسجَن الكريم ابن الكريم، ويسكن القصر الظلوم اللئيم؟!

قال القشيري: «ليس كلُّ أحدٍ أهلًا للبلاء؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء، فأما الأجانب فيتجاوز عنهم ويخلي سبيلهم- لا لكرامة محلّهم- ولكن لحقارة قدرهم، فهذا يوسف عليه السلام كان بريء الساحة، وظهرت للكلِّ سلامة جانبه، وابتُلي بالسجن، وامرأة العزيز فى سوء فعلها حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾، وقال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾، ثم لم تنزل بها شظيةٌ من البلاء».

١٥١ ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]:

الرؤيا شأنها عظيم؛ فلا تُقَصَّ على أي أحد، بل تخيَّر الصالحين، ومن لهم دراية بتأويل الرؤى.

١٥٢ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]:

رياح المحسنين تفضحهم مهما استتروا، وصدق القائل: «ما أسرَّ عبدٌ سريرة إلا أظهرها الله على قسمات وجهه وفلتات لسانه».

١٥٣ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]:

كان إحسان يوسف مقدِّمة قبول الرجلين لدعوته، وهذا قانون جارٍ مع كل داعية: لا بد من التمهيد أولًا بالإحسان لكسب القلوب قبل الأبدان.

١٥٤ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: ٣٧]:

قال جمال الدين القاسمي: «العالم إذا جُهِلَتْ منزلته في العلم،

فوصف نفسه بما هو بصدده- وغرضه أن يُقتبَس منه، ويُنتَفَع به في الدين- لم يكن ذلك من باب التزكية».

155 أحيانًا يحتاج المرء أن يعرِّف بنفسه حتى لا يتسلَّط عليه الجهلاء والسفهاء.

156 ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٣٧]:

استعمل يوسف مواهبه التي وهبها الله إياه في تعريف الناس بربهم ودعوتهم إليه، فهلا تعلَّمناها من يوسف!

157 ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]:التخلية قبل التَّحلية؛ لذا ذكر يوسف التخلي عن الشرك، ثم ذكر التحلي بالتوحيد الذي هو ملة إبراهيم.

158 ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]:لم يقل لهم: اتركوا ملة القوم، بل عبَّر بقوله: ﴿تَرَكۡتُ﴾، وفيه لطف في النصح وتورية، وكأنه كان على دينهما، فلما تركه آتاه الله هذا العلم، ترغيبًا لهما في ترك ملة الكفر.

159 ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]:لم يقل لهم: أنتم كافرون، فيزيدهم ذلك إعراضًا وعنادًا، بل جعل الحديث عن قوم آخرين، وهو من لطفه وحسن عرضه لدعوته على طريقة: إياكِ أعني فاسمعي يا جارة.

160 ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [يوسف: ٣٨]:

انظر كيف قدَّم الدعوة على تأويل الرؤيا، واستغل الفرصة لينشر دعوته ويبلِّغ رسالته.

١٦١ ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

[يوسف: ٣٨]: أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده هي نعمة التوحيد والإيمان به، وهي حقيقة يغفل عنها كثير من الناس، لذا لا يؤدون شكرها؟!

١٦٢ ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٣٨]:

قالها يوسف بعد أن سُجِن ظلمًا، وفي ديار الغربة، فمهما تكن آلامك؛ فهناك دومًا من نعم الله ما يمكنك التسلي به والتحدث عنه.

١٦٣ ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]:

نفوس المصلحين لا تتوقف عن حمل هَمِّ الدعوة حتى في ظلمات السجن ومن وراء القضبان!

١٦٤ ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ٣٩]:

النصيحة دواء مرٌّ، فلا بد أن يسبقه كلام حلو.

١٦٥ ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ٣٩]:

خاطب يوسف الرجلين بأنهما صاحباه في السجن، وزميلاه في المحنة، توددًا إليهما، وإيناسًا لنفوسهما، وذلك تمهيدًا لدعوتهما، تعلَّموا فن الدعوة من السادة الأنبياء!

١٦٦ ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أصل البلاء هو تسمية الحرام بغير اسمه، وفي الحديث: «**ليشربن**

أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها»؛ وذلك لتسويغ شربها، وقد فعلها إبليس مع آدم عليه السلام حين دلَّه على شجرة الخلد، وما هي بشجرة خلد.

١٦٧ هل آمن الرجلان؟! لم ينقل لنا التاريخ عن إيمانهما شيئًا، وليس هذا مما يؤثِّر في همة يوسف ولا همَّة أي داعية، فالداعية ينال أجرَه كاملًا، عصاه الناس أو أطاعوه.

١٦٨ ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]:
العبادة والحُكم صنوان لا يفترقان! فكما أن العبادة لا تنبغي إلا لله وحده، فالحكم كذلك يجب أن يكون لله وحده.

١٦٩ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: ٤١]:

يا كل داعية:

حافظ على قواسمَ مشتركةٍ مع الجميع، فهو أدعى لأن يُستَمَع إليك.

١٧٠ ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٤١]:
قيل :إن أصل القصة أن هذا الرجل -الذي هو الساقي- والآخر - الخبّاز- جاءهما أناس حاولوا رشوتهما ليدُسّا للملِك سُمًّا في طعامه وشرابه، وبعد إلحاح وافق الساقي والخباز، لكن بعد انصرافهم خاف الساقي فلم يضع السُّم في الشراب، وأما الخبّاز فوضع السُّم في الطعام، فلما أراد الملك الأكل قال الساقي: لا تأكل، فهذا طعام مسموم، فلما قال هذا تكلَّم الخباز وقال: لا تشرب، هذا شراب مسموم، ومن عادة الملوك في مثل هذا أن

يطلب من أحدهم أن يشرب مكانه، فطلب الملك من الساقي أن يشرب، فشرِب الساقي فلم يُصبه شيء، فليس في الشراب سم، وطلب الملك من الخباز أن يأكل من الطعام فلم يأكل، فأُتِي ببهيمة فأكلت من الطعام فماتت فأمر بهما فسُجِنا، حتى استكمال التحقيقات.

١٧١ ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾

[يوسف: ٤١]: قيمة الصدق!

لم يجامل يوسف صاحب الرؤيا السيئة، وقد اكتسب بصدقه هذا صفة (الصِّديق)، فكان الصدق سبب الرجوع إليه في وقت لاحق لتأويل رؤيا الملك، فالصِّدق لا يأتي إلا بخير، ولو بدا عكس ذلك.

١٧٢ ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:

في الحديث الصحيح:

«**الرؤيا على رِجْل طائِر ما لم تُعَبَّر** [تُفسَّر]، **فإذا عُبِّرَت** [فُسِّرَت] **وَقَعَت** [تحقَّقت]». صحيح الجامع رقم: ٣٥٣٥

وهذا يدل على أن الرؤيا إذا لم تُعَبَّرْ، لم تقع. قال ابن قتيبة: «أراد أنَّها غير مُسْتَقِرَّة، تقول العرب للشَّيْء إذا لم يسْتَقرّ: هو على رجل طائر».

١٧٣ ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لما حكيا ما رأياه، وعبَّر يوسف عليه السلام قال أحدهما: ما رأينا شيئًا، فقال: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:» .

١٧٤ ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾
[يوسف: ٤٢]:قال الإمام السعدي: «فيه أنَّ من وقع في مكروهٍ وشِدَّةٍ، لا بأس أن يستعينَ بمن له قدرةٌ على تخليصِه، أو الإخبارِ بحالِه، وأنَّ هذا لا يكونُ شكوى للمخلوقِ؛ فإنَّ هذا من الأمورِ العاديَّةِ التي جرى العُرفُ باستعانةِ النَّاسِ بعضِهم ببعض».

١٧٥ ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾
[يوسف: ٤٢]:عبَّر هنا بـ ﴿ظَنَّ﴾ مع أنه نبي يوحَى إليه، وهو ما يُشعِر بتواضعه، وأن على غيره ممن يؤوِّل الرؤى ألا يقطع بصحة تعبيره، فلربما أخطأ.

١٧٦ ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]:
هب أن الساقي ذكر يوسف عند الملك، كان يوسف سيرجع خادمًا في القصر، لكن تأخره بضع سنين أخرجه عزيزًا لمصر.. بعض التأخير فيه ألطاف خفية.

١٧٧ ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]:
فيه مشروعية الاستعانة بالغير على سبيل الشفاعة، وفي الحديث: «**اشفعوا تؤجَروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء**». صحيح الجامع رقم: ١٠٠٧

١٧٨ ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]:
الناسي هو الساقي وليس يوسف عليه السلام، لكن خالف في ذلك الإمام الرازي، فرجَّح نسيان يوسف قائلًا:
«واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذا وإن كان جائزًا لعامة

الخلق، إلا أن الأوْلى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية، وألا يشتغلوا إلا بمسبِّب الأسباب»، ثم قال:

«والذي جرَّبته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عوَّل في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سببًا إلى البلاء وإلى المحنة ... وإذا عوَّل العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه السابعة والخمسين من عمري».

١٧٩ ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢]:

من لطف الله وتدبيره الخفي أن أنسى الشيطانُ الساقي ذكرَ يوسف عليه السلام، فقد أراد الله أن يرتبط خروج يوسف بظهور براءته، فلو كان خرج عن طريق الساقي لظلت التهمة الأولى ملتصقة به.

١٨٠ ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

ما الحِكمة في طول بقاء يوسف في السجن؟!

أجاب ابن تيمية قائلا: «ولُبْثه في السجن كان كرامة من الله في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال؛ ولو لم يصبر ويتقِ بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعًا من السجن، لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس».

المقطع السادس

رؤيا الملك
بوابة يوسف إلى المُلْك

الآيات (٤٣ ـ ٥٣)



١٨١ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾[يوسف: ٤٣]:
دليل على جواز صِحَّة رؤيا الكافر وتحققها.

١٨٢ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾[يوسف: ٤٣]:
عندما يأذن الله بالفرَج، يأتي بأهون الأسباب، ولو كان رؤيا منام.

١٨٣ ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾
[يوسف: ٤٤]: قال السعدي:
«وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام، فإنه لو عبَّرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها -لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب -وكان الملك مهتمًّا بها غاية الاهتمام، فعبَّرها يوسف- وقعت عندهم موقعًا عظيمًا».

١٨٤ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف:٤٥]:
إذا أراد الله إنفاذ أمر يسَّر له أسبابه؛ لذا أخفى عن الجميع تأويل الرؤيا، ولم يجعلها إلا ليوسف، فكان على يديه شفاء صدر الملك وذهاب حيرته.

١٨٥ ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ ﴾[يوسف: ٤٥]:
تأويل الرؤيا كالفتيا! أي أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا بعرضها على العالِم بها، لا من تلقاء نفسي، ولم يقل: أفتيكم كما قال يوسف: ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[يوسف:٤١]:، تعظيمًا لأمر تأويل الرؤى فهو كالإفتاء، ويحتاج إلى علم لا



يصلح لـه كل أحـد.

١٨٦ سـئل الإمـام مالـك: أيعـبِّر الرؤيـا كل أحـد؟ فقـال: أبالنبـوة يُلعَـب؟! وقـال مالـك: لا يعـبِّر الرؤيـا إلا مـن يحسـنها، فـإن رأى خـيرًا أخبر بـه، وإن رأى مكروهًـا فليقـل خـيرًا أو ليصمـت، فقيـل: فهـل يعبِّرهـا على الخير وهـي عنده على المكـروه؟ فقـال: لا! الرؤيـا جـزءٌ مـن النبـوة، فـلا يُتلاعَـب بالنبـوة.

١٨٧ ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]:

سل مجرِّبًا ولا تسل حكيمًا! وقد جـرَّب الساقي يوسف في تأويـل الـرؤى فوجـد تأويلـه صحيحًـا؛ لـذا انطلـق إليـه واثقًـا أنـه سيأتيه بالخـبر اليقـين.

١٨٨ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]:

الكريـم لا يعلِّـق لوحـةً بـارزة فيهـا ذكـر شـهاداته وإنجازاتـه، بـل يـترك أفعالـه تتكلـم عنـه.

١٨٩ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]:

الصِّديـق صيغـة مبالغـة مشـتقَّة مـن الصـدق في حالـة يوسـف، أو مـن التصديـق في حالـة أبي بكـر الصديـق.

قال ابن عطية:

«وسـمّاه صديقًـا مـن حيـث كان جـرَّب صدقـه في غـير شيء، وهـو بنـاء مبالغـة مـن صـدَق.

وسُـمِّي أبـو بكـر صديقًـا مـن (صـدَّق) غـيره، إذ مـع كل تصديـق صـدق، فالمصـدِّق بالحقائـق صـادق أيضًـا».

١٩٠ ﴿أَفۡتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦]:







قالها الساقي في المرة الثانية، ولم يَقُلْ كما قال مع صاحبه في المرة الأولى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾[يوسف: ٣٦]؛ لأنه عايَنَ عُلُوَّ رُتبة يوسف عليه السَّلام وعرف فضله وصدقه، فعبَّر عن ذلك بالإفتاءِ.

١٩١ ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٦]:

نسيه في السجن بضع سنين، ثم عاد يستفتيه في رؤيا الملك، فأفتاه دون كلمة عتاب! أيُّ نفوس هذه!

١٩٢ ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٤٦]:

لم يذكر الساقي ليوسف أن الرؤيا خاصة بالملك، ولم يذكر اسم يوسف للملك حين قال: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، ولعل هذا بسبب طمعه في الاستفراد بالجائزة، واحتكار معرفة تأويل الرؤيا بلا منازعة، أو لكي لا يشترط يوسف خروجه من السجن أولًا قبل تأويل رؤيا الملك.

١٩٣ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[يوسف: ٤٧]:

قدَّم يوسف -من داخل السجن- نصائحه بإشفاق إلى مجتمعه الذي سكت عن إلقائه في السجن ظلمًا. . انظر كيف عبرت أرواح العظماء أنهار الضغينة.

١٩٤ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[يوسف: ٤٧]:

شأن الكريم عدم الإبطاء في العطاء، ولا التردد في البذل مهما قابل من جفاء.

١٩٥ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[يوسف: ٤٧]:



المرحلة الأولى من خطة الإنقاذ المصيرية تستغرق سبع سنين، وحدَّد يوسف عليه السلام معالمها كما يلي:

- خطة الإنتاج: ﴿تَزْرَعُونَ﴾.
- مدة الإنتاج: ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾.
- معدَّل الإنتاج: ﴿دَأَبًا﴾ أي عملًا دائبًا متواصلًا بزيادة ساعات العمل
- زيادة المدخرات: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾.
- ترشيد الإنفاق والاستهلاك: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

١٩٦ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾[يوسف: ٤٨]:

درس إداري مهم! اعتمدت خطة يوسف عليه السلام مبدأ المشاركة، ولاحظ مخاطبته لرسول الملك بقوله:

﴿تَزْرَعُونَ﴾، ﴿حَصَدتُّمْ﴾، ﴿فَذَرُوهُ﴾، ﴿تُحْصِنُونَ﴾،

فالخطاب بصيغة الجمع، أي للناس جميعًا، إشارة إلى ضرورة إشراك كافة المستويات في إعداد الخطة وتنفيذها.

١٩٧ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾[يوسف: ٤٩]:

وهو من الغيث وهو المطر، أو من الغوث وهو الفرج، وكلاهما يوصل إلى سُنة الله في حصول اليسر بعد العُسْر.

١٩٨ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾[يوسف: ٤٩]:

الفرج يأتي بعد بلوغ الشدة منتهاها، فمهما اشتد إغلاق الأبواب ستتسلل إليك رحمات الوهاب.

١٩٩ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ [يوسف: ٤٩]:

الكريم كريم في كل شيء! قال قتادة: «زاده الله علم سنة لم يسألوه

عنها، إظهارًا لفضله، وإعلامًا لمكانته من العلم وبمعرفته».

٢٠٠ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]:

الكرامة والعزة سمت المؤمنين! طلب الملك رؤية يوسف، وأمر بإخراجه من السجن، فأبى يوسف الخروج إلا بعد إثبات براءته.

٢٠١ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]:

عظيم صبر يوسف!

في الحديث: «**لو لَبِثْتُ في السِّجن ما لَبِثَ يوسف، ثم أتاني الدَّاعي لأَجَبْتُه**». صحيح البخاري رقم: ٦٩٩٢.

٢٠٢ ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠]:

تأملوا عفة لسان يوسف، وستره عليهن، فقد اكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن، دون التعرض لكيدهن ومراودتهن له عن نفسه، وتنزهًا عن ذكرهن بما يسوء.

٢٠٣ ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ﴾[يوسف: ٥٠]:

عجيب ألا يذكر يوسف امرأة العزيز تصريحًا، وهي سبب سجنه، وإنما ذكرها تلميحًا في عموم النسوة! والسبب: لحسن أدبه، ووفاء لزوجها، وحفظًا لمعروفها، وإكرامها مثواه حين كان في بيتها، فردَّ كرمها بعدم ذكرها.

٢٠٤ ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٥٠]:

أنا واثق أن ربي الذي جعل لكيد النسوة سلطانًا عليَّ فترة من الزمن، لن يتخلى عني، فهو العالم بصبري على بلائه ورضاي بقضائه، وسيجازيني عنه دنيا وآخرة.

٢٠٥ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١]:
أفضل من يدافع عنك في غيابك سمعتك الطيبة.

٢٠٦ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١]:
فيه نفيٌ لما ذكره بعض المفسِّرينَ مِن وجود بعض المقدِّمات مِن يوسف عليه السَّلام، مثلُ حَلِّ السَّراويلِ، والجلوسِ منها مجلس الرجل من امرأته، وقولُه تعالى: ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ نكرةٌ تؤكِّد النَّفي، فدلَّ على أنَّ يوسف لم يصدر منه أدنى سوء.

٢٠٧ ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[يوسف: ٥١]:
لا بد لبراءة المظلوم أن تظهر يومًا، فالصبر الصبر!

٢٠٨ ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾[يوسف: ٥١]:
أي تبيَّن وظهر بعد خفاء، فمهما علا الباطل سنين، فلا بد من افتضاحه بعد حين.

٢٠٩ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[يوسف: ٥١]:
دليل على أن الصدق فيه النجاة وإن رأيت فيه الهلاك.

٢١٠ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[يوسف: ٥١]:
توبة صادقة! كان بوسعها أن تسلك مسلك النسوة، فتعترف ببراءة يوسف ولا تزيد، لكنها –لصدق توبتها– أدلت باعتراف كامل أمام الملأ، مُعرِّضة سمعتها وكبرياءها للانهيار، فإن ذلك خيرٌ من عذاب النار.

٢١١ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[يوسف: ٥١]:
العشق يذهب بعقل صاحبه! فها هي امرأة العزيز تفضح نفسها بين نساء المدينة، وتعترف بجريمتها دون أدنى نظر في العاقبة.



٢١٢ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[يوسف: ٥٢]:

الأرجح أن هذا من كلام امرأة العزيز، أي ليعلم يوسف أني لم أخنه في غيبته، وأرميه بذنب هو منه بريء، فإن ذلك خيانة، وكان يوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.

٢١٣ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[يوسف: ٥٢]:

قال الشيخ رشيد رضا: «وفيها وجه آخر، وهو أنها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل في ما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي، وخلى بينه وبيني، فاستعصم وامتنع، فبقي عِرْضه - أي الزوج - مصونًا، وشرفه محفوظًا».

٢١٤ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢]:

قال ابن عاشور: «لا ينفِذه ولا يسدِّدُه، فأُطلِقت الهداية التي هي الإرشاد إلى الطريق الموصلة على تيسير الوصول، وأطلق نفيها على نفي ذلك التيسير، أي إن سنة الله في الكون جرت على أن فنون الباطل وإن راجت أوائلها لا تلبث أن تنقشع».

٢١٥ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢]:

فيه أن الخائن مفتضح ولو بعد حين، ويوسف يصرِّح هنا أنه لو كان خائنًا لما خلَّصه الله من هذه الورطة، وحيث إنه خلَّصه، فهو دليل على أنه بريء مما نسبوه إليه.

٢١٦ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾[يوسف: ٥٢]:

الخيانة من أهم موانع الهداية.





٢١٧ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

هذا من قول امرأة العزيز. قال ابن تيمية: «إن ما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف، فإضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه، وفيه الاغتياب لنبي كريم، وقول الباطل فيه بلا دليل، ونسبته إلى ما نزَّهه الله منه».

٢١٨ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

أعلى درجات الصدق، أن تبدأ بإلقاء اللائمة على نفسك قبل غيرك.

٢١٩ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

فيه كراهية تزكية النفس ومدحها.

٢٢٠ ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

ما انصرف سوء إلا برحمة الله عز وجل.

٢٢١ ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

المعنى: إلا ما رحم الله من النفوس المطمئنة، فعصمها أن تكون أمارة بالسوء.

٢٢٢ ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

أعدى أعدائك: نفسك التي بين جنبيك؛ لذا فجهادها واجب، ومن جاهدها ربح دينه، ومن تخلَّف تأسَّف. قال أبو عمرو بن بجيد: «من كرم عليه دينه هانت عليه نفسه».

٢٢٣ ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣]:

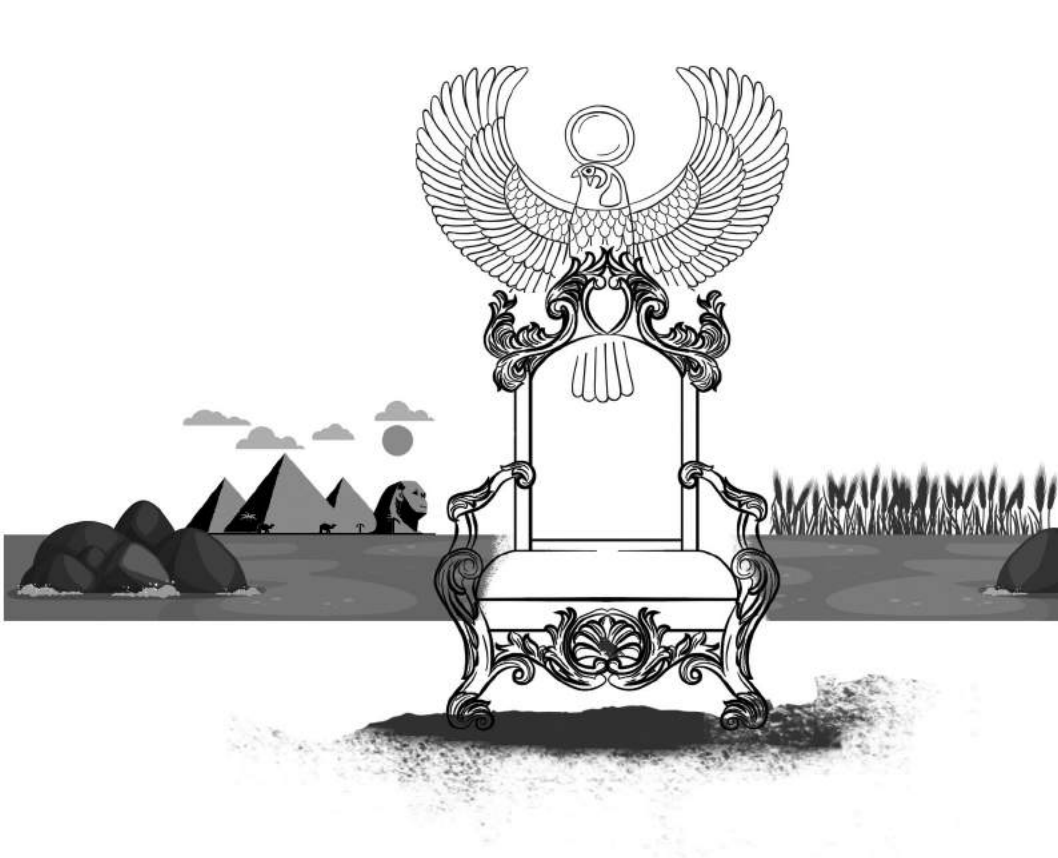
استعِن بالله عليك، واطلب غوثه يسارِع إليك، فقد سبقك إلى هذا الطلب أشرف نبي فقال ﷺ:

«اللهم آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها». صحيح الجامع رقم: ١٢٨٦.

المقطع السابع

استلام الحكم

الآيات (٥٤ ـ ٥٧)



٢٢٤ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤]:
كان ظهور براءة يوسف سببًا في نيل الحظوة عند الملك، فطلب استخلاصه لنفسه، وليس مجرد الإتيان به كما فعل في المرة الأولى مع أمر الرؤيا، فالسلامة من التُّهَم وحسن السيرة من أسباب علو المكانة.

٢٢٥ ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]:
الدعاة والمصلِحون شخصيات مخلصة ومبهرة ومقنعة؛ لذا يحرص المفسدون في كل عصر على أن يحولوا بينهم وبين صُنّاع القرار.

٢٢٦ ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]:
تكلَّم يوسف بالحجة والبيان، فأبهر الملك بكلامه ومنطقه، فولاه هذا المنصب العظيم، وهذا تحقيق الكلمة السائرة: المرء مخبوءٌ تحت لسانه.

٢٢٧ ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

[يوسف: ٥٥]:قال الإمام السمعاني:
«فإن قال قائل: أيجوز للْإنْسان أن يُزَكي نفسه وقد قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؟!
يجوز إذا كان في ذلك مصلحة عامَّة.
وقيل: إنَّه يجوز إذا عرف أنه لا يلْحقهُ بذلك آفَة، وأمِن العجب على نفسه.
وعن بعض الأئمة: لا يضر المْدح من عرف نفسه. وقد قال ﷺ: (أَنا سيد ولد آدم وَلَا فَخر)» أخرجه ابن حبان في [صحيحه].

٢٢٨ ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]:قال القرطبي: «قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوِّض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيُصلِح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك».

٢٢٩ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]:

هنا تقدَّم يوسف بمسوِّغات تعيينه في هذه الوظيفة الخطيرة، والتي لا تحتمل التجربة والخطأ، ولأنه أكفأ من يقوم بهذه المهمة، فقد أعلن عن امتلاكه لمؤهِّليْن أساسين: حفظ ما يليه، وعلمه بتدبير ما يتولاه. قال الزمخشري: «وصَف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طَلَبة الملوك ممن يولونه».

٢٣٠ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]:

وهدف يوسف من هذا الإعلان تعريف الناس بفضله؛ ليكون ذلك أدعى إلى اتباعهم لأمره في المستقبل القريب.

٢٣١ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]:

حفيظ إشارة إلى الأمانة، وعليم إشارة إلى القوة، وهو مكافئ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦]، والقوة بحسبها، فقوة الطبيب في قدرته على تشخيص المرض وعلاجه، وقوة المدرس في علمه وقدرته على توصيل المعلومة إلى طلابه، وقوة العالم في حفظه ومعرفته بأحوال الناس، وقد يكون الشخص أمينًا في دينه،



لكنه ضعيف في علمه وإدراته، فلا يصلح لتولي أمر المسلمين.

٢٣٢ كان أبو ذر رضي الله عنه أمينًا في دينه وأقدم إسلامًا من خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد قال النبي ﷺ فيه: «**ما أقلّت الغبراء -أي الأرض- ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر**»، لكنه ضعيف عند الإمارة، فقال له النبي ﷺ: «**يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم**».


٢٣٣ عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمار بن ياسر عن ولاية الكوفة، واستعمل بدلًا منه أبا موسى الأشعري، بعد أن اشتكى أهل الكوفة منه، فعزله عمر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، وقال عمر لعمار عندها: قد علِمتُ ما أنت بصاحب عمل، ولكني تأوَّلتُ قول الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].


٢٣٤ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٥٦]:

ذكر الإمام الرازي أن الكمالات الحقيقية في القدرة والعلم، وأن الله سبحانه أعلى شأن يوسف بهاتين الصفتين، فأما تكميله في صفة القدرة، فأشار إليه بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، وأما تكميله في صفة العلم، فأشار إليه بقوله: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾[يوسف: ٢١].

٢٣٥ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يوسف: ٥٦]:

طلب يوسف من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، ولم

يذكر الله إجابة الملك، بل قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لأن الفاعل الحقيقي هو الله، وقبول الملك لطلب يوسف لأن الله خلق في قلبه هذا القبول؛ ولذا حُذِفت إجابة الملك، واقتصرت الآية على ذكر التمكين الإلهي.

٢٣٦ ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]:

كناية عن إطلاق يد يوسف في جميع أرض مصر، فله مطلق الحرية وكامل السلطة في التنقل والنزول في أي مكان شاء، فلا ينازعه أحد في سلطانه، ولا يعارضه في قراراته؛ أي استتبَّ له الأمر.

٢٣٧ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦]:وما أحسن قول البحتري يواسي المسجونين ظلمًا:

أما في رسول الله يوسف أسوة .. لمثلك محبوسًا على الجَوْر والإِفك
أقام جميل الصبر في السِّجن برهة .. فآل به الصبر الجميل إلى المُلْكِ

٢٣٨ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]:

بشرى للمحسنين! قال الإمام الرازي:

«وذلك لأن إضاعة الأجر إما أن يكون للعجز، أو للجهل، أو للبخل، والكُلُّ ممتنع في حق الله تعالى، فكانت الإضاعة ممتنعة (مستحيلة)».

٢٣٩ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]:

هذه شهادة من الله ليوسف عليه السلام، وهي تبرئة جديدة له من تهمة الهمِّ بامرأة العزيز، فكيف لمحسن شهد الله له أن يقع في مثل هذا الخطأ؟!

٢٤٠ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]:

قضى الله قضاء مبرمًا أن المحسن يرى أثر عمله الصالح في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من عاجل بشرى المؤمن.

٢٤١ ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧]:

تنبيه رباني بعد وصول يوسف إلى سُدَّة الحكم، على أن أقل نعيم الآخرة خير من كل ما تبوأ الناس من نعيم الدنيا.

٢٤٢ ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧]:

لفتة لطيفة! قال الطاهر بن عاشور: «والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي: ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾، وفي جانب التقوى بصيغة المضارع: ﴿ يَتَّقُونَ ﴾؛ لأن الإيمان عقد القلب الجازم، فهو حاصل دفعة واحدة، وأما التقوى فهي متجددة بتجدد أسباب الأمر والنهي، واختلاف الأعمال والأزمان».

٢٤٣ ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧]:

قال سفيان بن عيينة:

«المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يُعَجَّل له الخير في الدنيا، وما له في الاخرة من خلاق»، وتلا هذه الآية.

٢٤٤ ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٧]:

إشارةٌ إلى أنَّ ما أعدَّ الله ليوسُفَ عليه السَّلامُ في الجنة لا يقارَن بحالتِه العظيمة وملكه الكبير الذي حصَّله في الدُّنيا.

المقطع الثامن

لقاء يوسف بإخوته مرة أخرى

الآيات (٥٨ - ٩٨)






٤٥ ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]:

سبحان مغيِّر الأحوال! لم يعرفو أخاهم لطول الغياب فقد فارقهم في سن الطفولة، وظنوا أنه قد مات، مع قلة اهتمامهم بشأنه، ولم يعرفوه للفارق الشاسع بين الحال التي بلغها من الملك والجاه والسلطان، والحال التي فارقوه عليها طريحًا في البئر، وساهم في ذلك أن المُلك والسلطان مما يبدِّل الهيئة، ويُلبِس صاحبه الهيبة، ويجعل منه شخصًا آخر.

٤٦ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]:

بلاغة القرآن في الإيجاز!

هنا اختصار أحداث كثيرة، ويستلزم أن حديثًا نشأ بين يوسف وبين إخوته، عرف منه تفاصيل قصتهم كاملة، وأن لهم أخًا غير شقيق لم يحضر معهم، وظل مع أبيهم، ولعله قال لهم هذا بعد أن طلبوا طعامًا زائدًا عن عددهم، لأن لهم أخًا لم يحضر معهم، فأعطاهم ما طلبوا، لكن اشترط عليهم إحضار أخيهم معهم في المرة المقبلة؛ ليتأكد من صدقهم.

٤٧ ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]:

إتقان التخفي! نكَّر يوسف الإشارة إلى أخيهم، فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُمْ﴾، فلم يقل: (ائتوني بأخيكم)؛ لأن التعريف يفيد سابق المعرفة، بخلاف التنكير، ولو فعل، لأثار الشكوك في نفوسهم، ولن يستبعدوا حينها أنه يوسف أخوهم.



٢٤٨ ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف: ٥٩]:

لماذا لم يطلب يوسف الإتيان بأبيه يعقوب؟!

قال أبو حيان: «وظاهر كل ما فعله يوسف عليه السلام معهم أنه بوحي، وإلا فإنه كان مقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله تعالى أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته، ولتتفسر الرؤيا الأولى».

٢٤٩ ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف: ٥٩]:

هذه الآية ترغيب، وبدأ به يوسف، والغرض منه: حثُّهم على أن يأتوه بأخيه.

وعبَّر بصيغة الاستقبال ﴿أَلَا تَرَوْنَ﴾ إغراء لهم بأن إيفاءه الكيل عادة مستمرة له كلما أتوه.

٢٥٠ ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [يوسف: ٥٩]:

ما أحلى الاقتداء بالأنبياء في الجود والعطاء، وقد قال النبي ﷺ للوَزَّان: «زِنْ وَأَرْجِحْ». صحيح الجامع رقم: ٣٥٧٤.

٢٥١ ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾

[يوسف: ٦٠]:هنا جاء دور الترهيب: إن لم تأتوني بأخيكم في المرة المقبلة، فلن أبيعكم شيئًا من الطعام، وفوق ذلك فإني أحذركم أن تقربوا بلادي فضلًا عن دخولها، وهو تحذير ذكي لم يطلقه يوسف إلا بعد علمه بأن إخوته سيعودون إليه مرة أخرى؛ لأن ما معهم من طعام لا يكفي إلا لزمن محدود.

٢٥٢ ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ [يوسف: ٦١]:

وعودهم دائمًا مصحوبة بالتأكيدات؛ لأنهم يعلمون أنهم – لسوء

سريرتهم وخلف وعودهم- عرضة للتشكيك والاتهام، والتأكيد هنا بقولهم ﴿وَإِنَّا﴾ وحرف اللام في ﴿لَفَٰعِلُونَ﴾.

٢٥٣ ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾[يوسف: ٦١]:

لفْظُ ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ تصوير للجُهْد العظيم الذي سيبذلونه، وإشارة إلى أنهم سيكررون المحاولة مع صعوبة الطلب وعزة المنال خاصة بعد إضاعتهم ليوسف.

٢٥٤ ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾[يوسف: ٦١]:

ولم يقولوا أبانا، إشارة إلى الحاجز النفسي الذي بينهم وبين أخيهم لأبيهم، فاستعمال ضمير المفرد الغائب بدلًا من ضمير جماعة المتكلمين معبِّر عن نار حقدهم التي لم تنطفئ.

٢٥٥ ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]:

صنع يوسف عليه السلام كل ما في وسعه ليغري إخوته بالعودة إليه، ومن ذلك أن أمر فتيانه بإعادة أثمان الطعام (بضاعتهم) إلى رحال إخوته، بعد أن دفعوها له، وذلك دون أن يشعروا، فإذا رجعوا ووجدوها، سيرجعون إليه مرة أخرى ليدفعوها مقابلَ ما أخذوه؛ لأن شأن النفوس الكبيرة أن تأنف من أخذ سلعة دون دفع الثمن.

٢٥٦ ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ﴾ [يوسف: ٦٢]:

تعلَّموا أخلاق الأنبياء واقتفوا آثار النبلاء! قال الإمام الرازي في سبب جعل البضاعة في رحالهم دون أخذ الثمن: «أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم».

٢٥٧ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ [يوسف: ٦٣]:استعملوا مع أبيهم سلاح التخويف من المستقبل ليبعث معهم أخاهم! فهذه أول كلمة نطقوا بها فور رجوعهم من الرحلة، وكانت العيون متطلعة إلى ما يحملون من زاد وطعام، فإذا بها تتلقى صدمة: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ وهذا للمستقبل، لكنهم أخرجوه بصيغة الماضي، لتأكيد المنع.

٢٥٨ ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]:كان قولهم هذا لأبيهم بمجرد رجوعهم إليه، وقبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ - بالياء- أي: فأرسله معنا ليأخذ نصيبه من الطعام المكال؛ لأن عزيز مصر لا يعطى طعامًا لمن كان غائبًا، فليأت ليأخذ نصيبه، ولنأخذ نحن نصيبنا كذلك من الطعام.

٢٥٩ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]:
بالجملة الاسمية واستخدام حرف التأكيد؛ لتأكيد حفظهم له، وأن ذلك أمر ثابت عندهم ثبوتًا لا مجال فيه للشك.

٢٦٠ ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٣]:
﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١]: عندما كانت لهم مصلحة قالوا: (أخانا)، وعندما انتهت لمصلحة قالوا: (ٱبۡنَكَ)، فتغيرت لغة الخطاب مع تغير المصلحة!

٢٦١ ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ٦٤]:إخلاف وعدك يجعلك مشتهرًا بين الناس بهذه



الخلُق الذميم، ولكي تمحو هذه السُّمعة عند الناس ستعاني كثيرًا ولأزمنة طويلة.

٢٦٢ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]:

سوء الظَّنِّ -مع وجود القرائن الدَّالَّة عليه- غيرُ ممنوعٍ ولا مُحرَّم، فلا يُلدَغ المؤمن من جحر مرتين.

٢٦٣ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

لم يقلها استسلامًا بل توكلًا! قال الإمام الرازي: «معناه: وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان، فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين».

٢٦٤ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

تلقَّفْها -يا أخي- من لسان نبي، وردِّدها عند كل خوف أو قلق، لتستقر وتطمئن.

٢٦٥ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

لما قالها يعقوب متوكِّلًا، حفِظ الله عليه ولديه، ورحمه بأن ردَّهما إليه. سبحانه.. هو الذي قال: «أنا عند ظن عبدي بي».

٢٦٦ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]:

لئن تعهدتم بحفظ ابني، فإني أتوكل في حفظه على الله لا عليكم، وهو عزاء يعزِّي به نفسه في فقدان يوسف، وذلك بتسليم أمره لله، لأنه خير الحافظين، ولا يقع شيء في هذا الوجود إلا بأمره وحكمته.

٢٦٧ ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]:

قالها يعقوب، فغاب عنه ابنه، فلما قال: (فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا) عاد إليه.. احذر كلماتك وراقب ألفاظك!

٢٦٨ ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [يوسف: ٦٥]: تعجبوا من ذلك، وحسِبوا أن في الأمر خطأً، أو أن العزيز ربما بدا له ألا يأخذ منهم ثمنًا للكيل الذي كاله لهم؛ انتظارًا لعودتهم إليه في المرة المقبلة، أو كرمًا منه وفضلًا.

٢٦٩ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ [يوسف: ٦٥]: ماذا نريد يا أبانا بعد كل هذا الكرم المدهِش؟! هذه بضاعتنا ردَّت إلينا، فلم ندفع شيئًا مقابل الطعام الذي جلبناه، فاستعملوا أربع وسائل في إقناع أبيهم باصطحاب أخيهم:

- أولًا: مدحهم لعزيز مصر الذي ردَّ لهم أثمان مشترياتهم.
- ثانيًا: حاجتهم الملحة إلى الميرة وطعام جديد؛ لأن الكيل الحالي كيل يسير لا يكفي إلا لمدة يسيرة، ويجب العودة إلى مصر لجلب طعام آخر.
- ثالثًا: تعهدهم لأبيهم بحفظ أخيهم.
- رابعًا: زيادة ما سيأخذون من أطعمة بسبب وجود أخيهم معهم.

٢٧٠ ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥]:

لم يقولوا: ونأخذ أخانا، بل: ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾، وكأنَّ أخذه شيء مفروغ منه وأمر واقع، لا مجال لمراجعة أبيهم لهم فيه، فسلِّم بهذا يا أبانا حكمًا إن لم تسلِّم به رأيًا.

٢٧١ ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: ٦٦]:

في معنى الإحاطة قولان:

- قول مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذرًا عندي، والعرب تقول: أحيط بفلان إذا اقترب هلاكه.

- قول قتادة: إلا أن تصيروا مغلوبين مقهورين، فلا تقدروا على الرجوع.

٢٧٢ ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]:

ما هذا الموثق؟! هو يمين الله وعهده، فطلب منهم أبوهم أن يجعلوا الله شاهدًا عليهم، بأن يقولوا مثلًا: لك منا ميثاق الله أو عهد الله، وقد جعله موثقًا؛ لأنه تُوثَّق به العهود وتؤكَّد.

٢٧٣ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]:

قد يصدق هنا المثل السائر: (البلاء مُوكَّلٌ بالمنطق)، فإن يعقوب عليه السلام قال هنا: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾، فابتُلِي بذلك، وأحيط بهم وغلبوا عليه.

٢٧٤ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]:

قال الإمام الرازي:

«فإن قيل: لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد؟!

قلنا: لوجوه:

أحدها: أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح.

وثانيها: أنه كان يشاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام.

وثالثها: أن ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك.

ورابعها: لعله تعالى أَوْحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه».

٢٧٥ ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ [يوسف: ٦٦]:

شفقة النبوة ظهرت في هذا الاستثناء، فلا يريد يعقوب عليه السلام أن يحمِّلهم ما لا يطيقون، بأن يأخذ عليهم عهدًا مطلقًا لا استثناء معه، فإن عجزوا عنه وقعوا في الإثم.

٢٧٦ ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ [يوسف: ٦٧]:

خشي عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلًا، وكانوا أهل جمال وبسطة في الجسم. قاله ابن عباس وغيره، والعين حق، وهي أقرب إلى الصغار منها إلى الكبار؛ ولذا عوَّذ عليه الصلاة والسلام الحسن والحسين من عين الحاسد، فقال: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، وكل عين لامَّة**»، ثم قال ﷺ: «**كان إبراهيم صلوات الله عليه يعوِّذ به ابنيه إسماعيل وإسحاق**» صحيح ابن ماجة رقم: ٣٥٢٥.. تعلَّموها واستعمِلوها مع أولادكم.

٢٧٧ ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ [يوسف: ٦٧]:

قال القرطبي:

«واجبٌ على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك، فإنه إذا دعا بالبركة صُرِف المحذور لا محالة، ألا ترى قوله عليه السلام لعامر: (**ألا برَّكْتَ**)، فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برَّك العائن (الحاسد)، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبرِّك، والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارِك فيه».



٢٧٨ ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ [يوسف: ٦٧]:

الغرباء يلفتون الأنظار أكثر من غيرهم؛ لذا كان عليهم التفرق لإخفاء كونهم جماعة واحدة، وفي هذا إرشاد لهم إلى الاستعانة على قضاء حوائجهم بالكتمان.

٢٧٩ ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ ﴾ [يوسف: ٦٧]:

فيه دلالة على جواز اتخاذ الأسباب الواقية من الحسد والعين.

٢٨٠ ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

أحيانًا تحتاج لأن تعلن عجزك أمام أولادك حتى يتعلقوا بالله وحده، ولا يعتمدوا عليك في كل شيء.

٢٨١ ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

لا يُغني حذر من قدر! الاحتراز الذي أرشدتكم إليه لا يرد عنكم قدر الله إن شاء، وأراد هنا تعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فكلاهما واجب.

٢٨٢ ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

العين لا تضر بنفسها، لكن بإذن الله ومشيئته.

٢٨٣ ﴿ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا ﴾ [يوسف:٦٧]:

قال مجاهد: «خيفة العين على بنيه».

٢٨٤ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ [يوسف:٦٨]:

يعقوب ذو علم لأننا علمناه إياه، أو العلم هنا بمعنى العمل، نقله البخاري عن قتادة، فلا معنى للعلم إن لم يتبعه عمل.

٢٨٥ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٨]:

أكثر الناس لا يعلمون ما علمه يعقوب من لزوم الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله.

٢٨٦ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩]: ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ في معاجم اللغة تأتي بمعنى: أعاد، وضمّ، وأحاط، وأنزل عنده، وأشفق، ورحم، ورقّ. وتآوت الطير: إذا انضم بعضها إلى بعض. وتآوى الجرح: أي تقارب للبرء، فانظر بلاغة القرآن، كيف صوَّرت كلمةٌ واحدة حال يوسف عليه السلام عند لقائه بأخيه بعد الغياب الطويل.

٢٨٧ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [يوسف: ٦٩]:

وجود الأخ يُذهِب البؤس، ويعين على نوائب الدهر، ويبرِّد حرارة الحزن .. من فوائد الأخوة.

٢٨٨ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]:

اخلع ثوب البؤس، وارم به وراء ظهرك، فأنا أخوك الذي رموه في البئر ليقتلوه، ومع هذا قد رأيت ما أوصلني الله إليه من العز والسلطان، ومن رأى آثار رحمة الله على غيره، طمع في رحمة الله أن تناله، فقوي عزمه، واشتد بأسه.

٢٨٩ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

كيف يفعل هذا نبي، فيدَّعي عليهم ما ليس فيهم؟!

قال الآلوسي ما ملخصه: «والذي يظهر أن ما فعله يوسف، من جعله السقاية في رحل أخيه، ومن اتهامه لإخوته بالسرقة.. إنما





كان بوحي من الله تعالى لما علم- سبحانه- في ذلك من الصلاح، ولما أراد من امتحانهم بذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾».

٢٩٠ ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

كيف جاز ليوسف أن يروِّع أخاه بنيامين بغير وجه حق؟!

والجواب: كان هذا بالاتفاق معه. قال ابن كثير: «وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معزَّزًا مكرَّمًا معظَّمًا».

٢٩١ ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

قال ابن الجوزي:

« فإن قيل: كيف جاز ليوسف أن يُسرِّق من لم يسرق؟

فعنه أربعة أجوبة:

أحدها: أن المعنى: إِنكم لسارقون يوسف حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الجب، قاله الزجاج.

والثاني: أن المنادي نادى وهو لا يعلم أن يوسف أمر بوضع السقاية في رحل أخيه، فكان غير كاذب في قوله، قاله ابن جرير.

والثالث: أن المنادي نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف.

والرابع: أن المعنى: إِنكم لسارقون فيما يظهر لمن لم يعلم حقيقة أخباركم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي: عند نفسك، لا عندنا ».

٢٩٢ ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

وهذا من أحسن المعاريض، والمعاريض: أن يقول الشخصُ لفظًا



هو ظاهرٌ في معناه، لكن المرادَ به معنًى آخر. قال ابن القيم:
«وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:
ليصح أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون
الكلام صدقًا، وذكر المفعول في قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾
[يوسف: ٧٢] وهو صادق في ذلك، فصدق في الجملتين معًا
تعريضًا وتصريحًا.
وتأمل قول يوسف: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا
مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل إلا من سرق، وهو أخصر
لفظًا، تحريًا للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقًا بوجه، وكان المتاع
عنده حقًا؛ فالكلام من أحسن المعاريض وأصدقها».

٢٩٣ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف: ٧١]:
في الآية دليل على جواز استعمال الحيلة في التوصل إلى المباح
واسترجاع الحقوق.

٢٩٤ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف:٧٢]:
استدلوا بها على مشروعية الجِعالة، والجعالة: التزام عِوَض
معلوم (الجُعْل) مقابل عمل معين، ومثاله: أن يقول الرجل: مَن
وجد محفظتي المفقودة فله ألف جنيه.

٢٩٥ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا
كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف:٧٣]:
السرقة من أعظم ألوان الفساد في الأرض.

٢٩٦ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]:
الكاذب يستحق العقوبة دنيوية أو أخروية.

٢٩٧ ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]:

تحكيم المرء في ذنبه أدعى لقبوله الحُكْم الصادر عليه.

٢٩٨ ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]:

سُمُوُّ أخلاق الأنبياء!

قال الشيخ العلمي:

«ما أكبر الفرق بين الأنبياء وغيرهم! يعقوب جاء إليه أولاده، ينعون له يوسف وينبئون بافتراس الذئب إياه، فلم يصرِّح لهم بأنهم كاذبون، مع أنهم كانوا كذلك، وهو يعتقدهم كذلك، لكنه صعب على طبعه اللطيف أن يواجههم بكلمة (كاذبين)، وأما هؤلاء الجنود المصريون فوصفوهم وواجهوهم بكلمة (كاذبين) مع أنهم ما كانوا كاذبين، والمصريون لا يعتقدونهم كاذبين، فما أكبر الفرق؟!».

٢٩٩ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾[يوسف:٧٥]:

قال السمرقندي:

«وكان الحكم في أرض مصر للسارق: الضرب والتضمين، وكان الحكم بأرض كنعان: أنهم يأخذون السارق ويسترِقّونه، ففوَّضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم».

أي أن يوسف ردَّ الحكم إليهم ليتمكن من أخذ أخيه بناء على حكمهم.

٣٠٠ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]:

الجزاء من جنس العمل! قال ابن عطية:

«أي هذه سُنَّتنا وديننا في أهل السرقة: أن يُتَمَلَّك السارق كما تملك هو الشيء المسروق».

٣٠١ ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف: ٧٦]:

ما السر في تكرار: ﴿ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾؟! ولماذا لم يقل: (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها منه) أو (استخرجها من وعائه)؟!

أجابوا على ذلك فقالوا: لو قال: (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها منه) لكان كأنه استخرجها من أخيه، ولو قال (ثم استخرجها من وعائه) لأوهم ذلك أنه استخرجها من وعاء نفسه أي وعاء يوسف، فلا يمكن التخلص من هذا إلا بتكرار: ﴿ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾.

٣٠٢ ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ [يوسف: ٧٥]:

لم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقته، للإشارة إلى كمال نزاهتهم، وبراءة ساحتهم من السرقة، حتى لكأن ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بكلمة السرقة في هذا المقام.

٣٠٣ ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٧٦]:

قال ابن القيم: «تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

وحسن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم، والثاني ممدوح».

٣٠٤ ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٧٦]:

عندما يكيد لك الخلق بغير الحق ، فانتظر كيد الله بهم، فالجزاء من جنس العمل.




٣٠٥ ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]:

صبر على كيد إخوته، فكاد الله له.

٣٠٦ ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

قال ابن القيم: «تنبيهٌ على أنَّ العلم الدَّقيق بلطيفِ الحِيَل الموصلة إلى المقصود الشَّرعي الذي يحبُّه الله تعالى ورسوله- مِن نصر دينه وكسر أعدائه، ونصر المُحِقِّ وقمع المُبْطِلِ- صفة مدح يرفع الله تعالى بها درجة العبد، كما أنَّ العلم الذي يُخْصَمُ به المُبْطِل وتُدْحَض حُجَّتُه، صفةُ مدح يَرفَع بها درجة عبده».

٣٠٧ ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]:

استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز المشاركة في الحكومات التي لا تحكم بالإسلام، إذا ترتب على المشاركة تحقيق مصلحة كبرى أو درء مفسدة عظمى.

٣٠٨ ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]: مشيئة الله غالبة! إذا شاء الله إنفاذ أمر، يسَّر له أسبابه، فقد أخذ يوسف أخاه بما وقع من حيلة الصواع، ولو شاء الله لأخذ أخاه بغير هذه الحيلة.

٣٠٩ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

معناه أن كل عالم هناك مَنْ هو أعلم منه، فيوسف عليه السلام أعلم من إخوته، وفوق يوسف الأعلم منه، وهكذا حتى ينتهي الأمر إلى الله عز وجل.

٣١٠ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

قال سعيد بن جبير: كنا عند ابن عباس، فحدَّث بحديث عجيب، فتعجَّب رجل فقال: الحمد لله، فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت! الله العليم فوق كل عالم.

٣١١ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]:

أحيانًا يكون الصمت أبلغ من كثير من الكلام.

٣١٢ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]: ما هذا الحقد الأسود الذي لم تخفَّ وطأته بعد كل هذه السنين؟! ويزيدك تعجبًا أن المقام ليس مقام طعنٍ في يوسف، بل إنهم ذكروه هنا على سبيل الاستطراد، ومع هذا اتهموه زورًا، وهم الذين كانوا سبب موته (كما ظنوا)، فاتهموه بالسرقة، ولم يكتفوا بجريمة محاولة قتله، بل ألحقوا بها القول السيئ بافتراء الكذب عليه.

٣١٣ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]: قولهم: ﴿أَخٌ لَّهُۥ﴾ إصرار منهم على اعتبار يوسف وأخيه جبهة مستقلة عنهم، فزعَموا أن السرقة ليست غريبة على بنيامين، فإن أخاه الذي هلك كان أيضًا سارقًا! وهما ضالعان في السرقة لأنهما من أم أخرى غير أمِّنا، وقد اقتدى الأخ بأخيه، ولا شك أن الاشتراك في الأنساب يؤدي إلى الاشتراك في الأخلاق!

٣١٤ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]: من الكلام ما هو أشد وقعًا على المرء من الحسام!

٣١٥ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف: ٧٧]: رمتني بدائها وانسلَّت! كذبة جديدة يفترونها على يوسف، فينعتونه بالكذب وهم الكاذبون، وكأنهم لم يكذبوا من قبل على أبيهم في شأن يوسف مع الذئب. نفوس عجيبة!

٣١٦ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾[يوسف: ٧٧]: الكلمة التي قالها في سره ولم يُبدِها لهم هي: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ٧٧]، فما هذا الصبر؟ وقوة النفس الفولاذية! صبَر على الظلم الأول بمحاولة قتله، ثم الظلم الثاني بالافتراء عليه.

٣١٧ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾[يوسف: ٧٧]: ما أعظم هذا الحِلْم النبوي! يُسّبُّ وهو عزيز مصر، فيُغضُّ الطرف عن الأذى! ويطرح من قاموسه كلمات التشفي والانتقام.

٣١٨ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾[يوسف: ٧٧]: ما أجمل ما قيل: صدرو الأحرار قبور الأسرار.

٣١٩ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾[يوسف: ٧٧]: رحم الله امرءًا كتم سرًّا، وتنازل عن حق؛ ليؤلِّف بين القلوب وينزع الأضغان.

٣٢٠ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾[يوسف: ٧٧]: احمل الكلمات الموجعة، وضعها تحت ثرى الذاكرة، وادفنها في قبر النسيان.

٣٢١ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾[يوسف: ٧٧]: ليست الصراحة ممدوحة على الدوام، فالمداراة مطلوبة أحيانًا



تأليفًا للقلوب واتقاء للشرور.

٣٢٢ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾[يوسف: ٧٧]:

التغافل من أخلاق العظماء.

٣٢٣ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾[يوسف: ٧٧]:

شتم هشام بن عبد الملك رجلاً من أشراف الناس، فقال هذا الرجل: أما تستحي أن تسبَّني وأنت خليفة؟!

فقال هشام: اقتص مني،

قال: لا أريد أن أكون سفيهًا، قال: تعوَّض مني بمال،

قال: ما كنتُ أبيع شرفي بالدرهم والدينار، قال: اجعلها لله، قال: هي لله ولك، فخجل هشام ونكَّس رأسه، وعاهد الله ألا يشتم أحدًا بعدها أبدًا.

٣٢٤ ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]: غالبا ما تأتي كلمة: ﴿تَصِفُونَ﴾ في القرآن للتعبير عن الكذِب، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنعام: ١٠٠]، فيوسف أسرَّ في نفسه هذا القول: الله يعلم كذب اتهامكم لي بالسرقة، وأني وأخي برءاء مما تدَّعون.

٣٢٥ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٧٨]:

قال ابن عاشور: «ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره لأنه كبير قومه، أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه، فالأوصاف مسوقة للحث على إطلاق سراح الابن».



٣٢٦ ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٧٨]:

الاستعطاف وسيلة مشروعة للوصول للهدف، بشرط أن يُقصَد بها الرجل الشهم المحسن، وأما استعطاف اللئيم فذلٌّ وخنوع لا يليق بمسلم.

٣٢٧ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٧٨]:

تواتر الشهادات بالإحسان ليوسف عليه السلام! فهذه شهادة إخوته له بالإحسان، وهي الشهادة الثالثة، بعد شهادة الله له: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٢٢]، وشهادة صاحبيه في السجن: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[يوسف: ٣٦].

٣٢٨ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٧٩]:

ما أجمل الصدق في المواقف كلها! لم يقل (من سرق) تحرزًا من الكذب.

٣٢٩ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٧٩]:

التماسكم مرفوض! هنا رسالتان: لا محاباة في أحكام الشرع، ولا تزر وازرة وِزْر أخرى.

٣٣٠ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٧٩]:

ما يفعله بعض الظلمة من إلقاء القبض على بعض أقارب المتهم حتى يسلِّم نفسه هو عدوان لا يقره شرع ولا عرف.





٣٣١ رُوِي أن الحجاج بن يوسف أمر بأخذ رجل فلم يجدوه، فأخذوا أخاه بدلًا منه، فقال له الحجاج لما رآه:

أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وقد .. تُعدي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُرُبِ
ولَرُبَّ مأخوذٍ بذنب عَشيرة .. ونجا المقارِفُ صاحب الذنبِ!

فقال الرجل: ولكني سمعتُ الله يقول غير هذا!

قال الحجاج: وما يقول؟!

قال الرجل: قال عز وجل: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾[يوسف:٧٨-٧٩]:،

فطلب الحجاج قائد الشرطة، فمثل بين يديه، فأمره بفك قيد الرجل، وبناء منزله، وزيادة عطائه، ثم أمر مناديًا أن ينادي في الناس: صدق الله وكذب الشاعر .

٣٣٢ ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]:

آية من أبلغ آيات القرآن!

قال الإمام الثعالبي:

«من أراد أن يعرف جوامع الكلم، ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيجاز، ويفطن لكفاية الإيجاز، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام.

ثم قال: فمن ذلك قوله تعالى في إخوة يوسف: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾، وهذه صفة اعتزالهم جميع



الناس، وتقليبهم الآراء ظهرًا لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه، وما يورِدون عليه من ذكر الحادث، فتضمَّنَت تلك الكلمات القصيرة، معاني القصة الطويلة».

٣٣٣ ذكر القاضي عياض في كتاب (الشفا) في (بحث إعجاز القرآن): أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾، فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا.

٣٣٤ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ﴾[يوسف: ٨٠]:

لم اختيار هذه الكلمة دون اختيار كلمة (يئسوا)، وهي أكثر اختصارا؟!

والجواب: زيادة السين والتاء في ﴿ٱسْتَيْـَٔسُواْ﴾ تدل على المبالغة، وهي تفيد أن اليأس قد بلغ منهم أعلى درجاته، بعد أن باءت كل محاولاتهم لإنقاذ أخيهم مع عزيز مصر بالفشل، وفي الآية بلاغة بالحذف، بدلًا من أن يقول: فلما استيئس إخوة يوسف من العزيز.

٣٣٥ ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾[يوسف: ٨٠]:

﴿خَلَصُواْ﴾: بمعنى اعتزلوا، وأصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط، وهي أبلغ من قول: (انفردوا).

﴿نَجِيًّا﴾: منصوب لأنه حال أي انفردوا تناجيًا متشاورين في ما سيقولونه لأبيهم عند رجوعهم بشأن أخيهم، والنَّجِي لفظ يوصف به مَنْ له نجوى، سواء كان واحدًا أو جماعة، كلفظ (عدو)، فهو مفرد ويُقصَد به الجماعة، ومثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وهو من بلاغة القرآن.

٣٣٦ ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ [يوسف: ٨٠]:

لم يذكر اسمه؛ فليس المهم الأسماء بل الوقائع والأحداث.

٣٣٧ ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾[يوسف: ٨٠]:

هنا بداية الإفاقة وصحوة الضمير! فهذا اتهام صريح لهم من كبيرهم بالتفريط في أخيهم يوسف، فإن توالي المصائب كفيل بإيقاظ بعض الضمائر، ووقوع الشدة قد يكون سبب التوبة، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

٣٣٨ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾

[يوسف: ٨١]:الأصل في الشهادة أن تكون عن مشاهدة وعيان، ولا تصح بغلبة الظن.

٣٣٩ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾

[يوسف: ٨١]: قال الإمام القرطبي:

«تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها، ولهذا قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة».

٣٤٠ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾

[يوسف: ٨١]:اتفق العلماء على أن القاضي يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر؛ لذا يستند الحكم على البيِّنة وشهادة الشهود وغيرها من أحكام الظاهر، ولو كان الباطن والحقيقة على خلاف ذلك.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١]:


٣٤١ آفة الأخبار رواتها، فلا تنقل إلا ما رأيتَ وتأكدت من صحته، وأكثر الناس يحدِّث بما فهم لا بما سمع أو رأى، وفارق شاسع بين الأمرين.

٣٤٢ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾[يوسف: ٨١]:

قال ابن عاشور:

«احتراسٌ من تحقق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإما لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه».

والغيب: الأحوال الغائبة عن المرء، والحفظ هنا بمعنى العلم.

٣٤٣ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا . . ﴾ [يوسف: ٨٢] :

سوابق أعمالهم تلقي بالشك على كل تحركاتهم؛ لذا يستدعون الشهود لعلمهم أن الثقة فيهم معدومة.

٣٤٤ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]:

أي أهل القرية، أو أن المسألة واضحة مشتهرة تمامًا لدرجة أن الكل حتى الجماد يعرف تفاصيلها.

٣٤٥ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢] :

ومن الذي اتهمكم بالكذب؟! كاد المريب يقول: خذوني!

٣٤٦ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]:

كيف اجتمعت مرارة الصبر مع الجمال؟! والجواب: ليس هذا حاصلًا إلا في نفوس الموقنين، فإن حلاوة الأجر لديهم طغَت على مرارة الصبر.

٣٤٧ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]:

وصدق القائل:

اشْتَدِّي أزْمَةَ تَنْفَرِجي ... قَدْ آذَنَ ليلُكِ بِالبَلَجِ

وفيه تنبيه على ألا بقاء لمحنة كما ألا دوام لنعمة.

٣٤٨ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]:

دوام الحال من المحال، فلا يغترن أحدٌ بكثرة مال، ولا ييأس من ضيق حال.

خَفْ إذا أصبحت ترجو ... وارْجُ إن أصبحتَ خائف
رُبَّ مكروهٍ مَخوفٍ ... فيه لله لطائف

٣٤٩ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]:

كل ما جرى ويجري وسيجري في هذا الكون إنما هو بعلم الله تعالى، ولحكمة بالغة، فلماذا الاستغراق في الحزن؟! وفيم الاستسلام لليأس؟!

٣٥٠ ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]:

فيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة، ولقد بكى النبي ﷺ على ولده إبراهيم، لكن لم يجزع ولم يسخط على قدر الله لا بقلبه ولا بلسانه، بل قال ﷺ:

«**تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، والله إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**». صحيح الجامع رقم: ٢٩٣١.

٣٥١ ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]:

قال ابن الجوزي:

«فإن قيل: هذا لفظ الشكوى فأين الصبر؟ فالجواب من وجهين: **أحدهما**: أنه شكا إلى الله لا منه.

والثاني: أنه أراد به الدعاء، فالمعنى: يا رب .. ارحم أسفي على يوسف».



٣٥٢ ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]:



كيف تأسف يعقوب على يوسف دون أخيه مع أن مصيبة فقد أخيه أحدث وبالتالي أشد أثرًا؟

والجواب: تكون أشد أثرًا إذا تساوت المصيبتان في القدر، لكن مصيبة فقد يوسف أشد على قلب يعقوب من مصيبة فقد أخيه، مع تقادم عهدها إلى عشرات السنين.

٣٥٣ ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: ٨٤]:

ابيضت عينا يعقوب ولم تبيض عينا يوسف، فارق بين الآباء والأبناء!

٣٥٤ ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: ٨٤]:

كثرة البكاء لا تنافي الصبر الجميل، وقد طال بكاء يعقوب على يوسف سنين طويلة حتى فقد بصره، لكن ما فقد مع ذلك رجاءه وأمله.

٣٥٥ ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]:

علو الهمة في الحزن! فالكظيم هو من كظم حزنه، وما أظهر الشكاية لأحد من الخلق، بل اكتفى بالبكاء في خلوته، وبث شكواه إلى مولاه.

٣٥٦ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]:

احذر شدة الحزن، فإنها تُدني صاحبها من الموت!

قال مجاهد:

الحرض: ما دون الموت أي قريبًا من الموت، ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾: أي من الميتين.

٣٥٧ ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]:

ما أقبح مواساتكم! أما كان يجمل بكم أن تشاطروه أحزانه، بدلًا من هذا التأنيب؟! بدلا من أن يقولوا له: اصبر واحتسب، إذا بهم يبشِّرونه بالموت أو ما دون الموت!

الدرس: من لم يستطع البكاء مواساةً للمكروبين فليرحم الباكين، ومن لم يشعر بالألم فليشفق على المتألمين.

٣٥٨ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]:

قال القشيري:

«شكا إلى الله ولم يشْكُ من الله، ومن شكا إلى الله وصل، ومن شكا من الله انفصل، ويُقال: لما شكا إلى الله وجد الخلَف من الله».

٣٥٩ ما الفارق بين البث والحزن؟!

قال الإمام الشوكاني: «ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنًا، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثًّا، فالبثُّ على هذا: أعظم الحزن وأصعبه».

٣٦٠ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]:

بعض أوجاعك لن يفهمها البشر، ولا بمقدورهم أن يخفِّفوها.

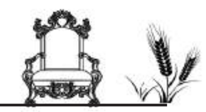
٣٦١ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]:

لا تبث شكواك إلا للقادر على كشف بلواك!!

٣٦٢ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]:

شكواك إلى المحب تُحزِنه، وشكواك إلى الكاره تُسعِده، فلم ترفع الشكوى إلى غيرك؟!



٣٦٣ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦]:

قال ابن تيمية:

«أعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق: إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم».

٣٦٤ ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦]:

قال أبو حيان: «أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب».

٣٦٥ ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٧]:

أولياء الله يلتمسون الفرج عند ضراوة البلاء، فشيخ كبير يوصي أبناءه بعد أن كفَّ بصره من البكاء على فقد أبنائه الثلاثة، قائلًا: ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾.

٣٦٦ ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٧]:

لماذا نيأس من الإصلاح؟ هب أننا سوف لا نصل إلى شيء من النتائج، فما يضيرنا؟ ألم نؤدِّ الواجب؟ ألم نتحَرَّ الحق؟ ألم نؤدِّ الرسالة؟ ذلك حسبنا. (حسن البنا)

٣٦٧ ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]:

قال الرازي:

«واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا: اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم، بل هو بخيل. وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول



أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرًا».

٣٦٨ ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ [يوسف: ٨٨]:

ما أبأس الحال التي وصل إليها إخوة يوسف! وصفوا بضاعتهم بأنها مزجاة، ومعنى المزجاة على خمسة أقوال: قليلة أو رديئة أو كاسدة أو رثَّة أو ناقصة، والبضاعة المزجاة من مظاهر الضُّر الذي نزل بهم، وقدَّموا هذا الوصف لترقيق القلوب بين يدي طلبهم للطعام.

٣٦٩ ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]:

قال ابن الجوزي: «من تأمّل ذلَّ إخوة يوسف؛ عرف شؤم الزلل».

٣٧٠ ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]:

سبحان مغيِّر الأحوال! الأيدي التي ألقت يوسف في الجب هي نفس الأيدي التي امتدت إليه اليوم بالسؤال.

٣٧١ ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]:

وفي طلب الصدقة هنا تعريض. قال ابن عاشور: «وطلبوا التصدق منه تعريضًا بإطلاق أخيهم؛ لأن ذلك فضل منه، إذ صار مملوكًا له كما تقدم».

٣٧٢ ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]:

فائدة دُعائية! قال القرطبي:

«يُكرَه للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدَّق علي. سمع الحسن رجلًا يقول: اللهم تصدَّق علي، فقال الحسن: يا هذا! إن الله لا يتصدق، إنما يتصدق من يبتغي الثواب، أما سمعت



قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨]. قال: اللهم أعطني وتفضل عليَّ».

٣٧٣ ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]:الكريم لا يُكثر عتاب من يحب، بل يعذره، وانظر كيف نسب يوسف محاولة قتلهم له إلى الجهل!

٣٧٤ ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾[يوسف: ٨٩]:

ومن أجمل ما قيل في التماس الأعذار:

إذا ما بدَتْ من صاحب لك زلةٌ ... فكنْ أنتَ محتالاً لزلَّته عذرا

٣٧٥ ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾[يوسف: ٩٠]:

أنا يوسف الذي ظلمتموه بكل ألوان الظلم، أنا ذلكم العاجِزُ الذي أردتم قتله، وإلقاءه في البئر، ثُمَّ صار اليوم إلى ما تشاهدون من المُلْك والسلطان؛ أردتم أمرًا وأراد الله أمرًا، فكان ما أراد الله.

٣٧٦ ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾[يوسف: ٩٠]:

هنا ظهر شعور الرحمة في قلب يوسف، ولم يتمالك نفسه، بعد أن تأثر غاية التأثر بالحالة التي رآهم عليها، والتي أعلنوا عنها: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾[يوسف: ٨٨]، واستعطفوه: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ﴾[يوسف: ٨٨]، فإذا بنبع العاطفة يتفجر في قلبه، ليكشف عن هويته، ويمدَّ يد المصافحة لهم لنسيان الماضي الأليم وإرث العداوة القديم.

٣٧٧ ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾[يوسف: ٩٠]:

يا سعدَ من منَّ الله عليه! قدْ مَنَّ اللهُ علينا بالخَلاصِ مما ابْتُلينا

بـه مـن الظلـم والإذلال، والاجتـماع بعـد الفُرقـةِ، والعـزَّةِ بعـد الذِّلَّةِ، والأُنـسِ بعْـد الوَحْشَـة.

٣٧٨ ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ﴾[يوسف: ٩٠]:

أدب الأنبياء يتمثل في رد الفضـل في كل مـا وصلـوا إليـه من خيرٍ إلى الله رب العالمين، فكانـوا كلـما ازدادوا نِعَـمًا، ازدادوا تواضعًا وشـكرًا.

٣٧٩ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[يوسـف:٩٠]:هذه خلاصـة واحـدة مـن أحسـن القصـص، وأهـمُّ دروسـها في عـشر كلـمات.

٣٨٠ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾[يوسف:٩٠]:

تعليـل لجملـة (مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآ)، فبسـبب التقـوى والصـبر مـنَّ الله عليهـم.

٣٨١ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[يوسـف:٩٠]: عـلى الداعيـة أن يغتنـم الفرصـة لإلقـاء الموعظـة، وهـي عنـد تأثـر السـامع وانفعالـه كـما فعـل ذلـك يوسـف حـين قـال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[يوسـف: ٩٠].

٣٨٢ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[يوسـف:٩٠]: التقـوى هـي الأبقـى والسـبب الأقـوى، وعاقبـة الصـبر الجـبر، وثـواب التقـوى والصـبر نوعـان: معجَّـل في الدنيـا، ومؤجَّـل إلى يـوم القيامـة.

 ٣٨٣ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[يوسف:٩٠]:قال ابن تيمية:

«ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله- كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين- كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيمًا وسرورًا ؛كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنًا وثبورًا».

٣٨٤ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

[يوسف:٩٠]: سُنَّة إلهية جارية!

قال ابن القيِّم:

«هذه عادة الله سبحانه فى الغايات العظيمة الحميدة: إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيَّأ لها أسبابًا من المحن والبلايا والمشاق، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها؛ كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط، ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسول ﷺ إلى مكة ذلك المدخل العظيم، بعد أن أخرجه الكفار ذلك المحرج ،ونصره ذلك النصر العزيز، بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه».

٣٨٥ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾

[يوسف: ٩١]: علموا اليوم أن حقيقة الإيثار الإلهي ليست بالغنى والقصور، إنما هي بالتقوى والصبر وهما مفتاح الأجور.

٣٨٦ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾

[يوسف: ٩١]: هنا كانت بداية الإفاقة لهم جميعا! وقد جمعوا بهذا القسم بين فضيلتين: الإقرار ليوسف بالفضل، والاعتراف بالخطأ.

٣٨٧ ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١]: هذه كلمة مباركة!

كان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية من أشد الناس عداوة وإيذاء للنبي ﷺ، فأقبلا على الرسول ﷺ، فأعرض عنهما، فلجأ أبو سفيان لابن عمه علي بن أبي طالب، فقال علي لأبي سفيان: ائت رسول الله ﷺ من قِبَل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولًا منه، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له النبي ﷺ: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

انظر كيف مسحت كلمة واحدة عشرين عامًا من العداوة؛ لأن صاحبها هو صاحب أعلى همَّة بشرية، فلا يرضى أن يكون أحدٌ أحسن منه قولا، وهذا ما أدركه علي رضي الله عنه.

٣٨٨ ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[يوسف: ٩٢]: من أتاك معتذرًا ، فلا تكثر عليه اللوم، يكفيه ما به من ندم.

٣٨٩ ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[يوسف: ٩٢]: عدم التعيير خلق إيماني رفيع! ولو كان متعلِّقًا بأكبر الكبائر! ففي الحديث: «**إذا زنَت أَمَة أحدكم، فتبيَّن زناها، فليجلدها، ولا يُثرِّب**». صحيح الجامع رقم: ٥٨٧ ، أي لا يوبِّخها ولا يعيِّرها بعد إقامة الحد، وقالوا: وسبب ذلك ستة أشياء:

أحدها: لأن المقدور كائن.

والثاني: لأن الهوى غالب.





والثالث: لأنها نالت عقوبتها الشرعية، فلا يُزاد عليها.

والرابع: أنها ربما تكون قد ندِمت وتابت.

والخامس: أنه ربما سمع تعييره لها من لم يكن يعلم حالها.

والسادس: أن المعيِّر لها لا يأمن أن يُبتَلى بما عيَّرها به.

٣٩٠ ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[يوسف: ٩٢]:

النفوس الكبيرة تتسامى فوق الجراح، وتتناسى الآلام، وتغفر زلات الكرام.

٣٩١ ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[يوسف: ٩٢]:

ما أعظم تحقيق يوسف لمقام الفتوة، فما الفتوة؟! جاء في تعريفها في مدارج السالكين: «أن تقرِّب من يقصيك، وتُكرِم من يؤذيك، وتعتذر إلى من يجني عليك، وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليك، ومعاملته بضد ما عاملك به، فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خطتين. فخطتك: الإحسان، وخطته: الإساءة».

٣٩٢ ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾

[يوسف: ٩٣]:كما كان قميص يوسف سببًا في حزن يعقوب، كذلك كان سبب فرحته، فأمْرُ الله إذا نفذ، جاء من أي طريق.

٣٩٣ ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾[يوسف: ٩٤]:

لم يقل: أشم أو أحس دلالة على يقينه وثقته، فللفرج رائحة لا يجدها إلا الموقنون.

٣٩٤ ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾[يوسف: ٩٤]:

هذه معجزة يعقوب! قال الرازي: «إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات، فإن وصول الرائحة إليه من

هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة، ولا بد من كونها معجزة لأحدهما، والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام».

٣٩٥ ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[يوسف: ٩٥]:

وجوب التأدب مع الأنبياء! قال قتادة: «لفي حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه، قالوا كلمة غليظة، ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبي الله».

٣٩٦ ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[يوسف: ٩٥]:

لقد كان إخوة يوسف معه في مصر، فمن الذي قال هذا الكلام ليعقوب وهو في الشام؟!

إنهم أحفاده، وكانوا أشد سفاهة وجفاء وغلظة من آبائهم، فقد قدَّموا القسَم بالله أن يعقوب في ضلال مبين، في حين قال آباؤهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[يوسف: ٨]،وكان كلام آبائهم في حق أبيهم يعقوب في غيبته، بينما الأحفاد واجهوا جدَّهم بهذا الوصف الشائن في وجهه.

٣٩٧ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[يوسف: ٩٦]:

كل حرف في القرآن له دور! وليس ثمة حرف في كتاب الله ليس له دور أو فائدة، فالفاء في بداية هذه الآية أفادت أن مجيء البشير وقع دون أدنى تراخٍ.

٣٩٨ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[يوسف: ٩٦]: يقول الشيخ الشعراوي:

«فإذا جاءكم خبر من معصوم؛ فإياكم أن تقفوا بعقولكم فيه؛ لأن العقول تأخذ مُدْركات الأشياء على قَدْرها، وهناك أشياء فوق مُدْركات العقول.

وحين يُحدِّثكم معصوم عن ما فوق مُدْركات عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه، أو لم تستوعبوا حديثه».

٣٩٩ ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾[يوسف:٩٧]:

العبرة بكمال النهاية! قال السعدي:

«العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سامح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين».

٤٠٠ ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾[يوسف:٩٧]:

الإقرار بالذنب أول خطوة في طريق التوبة، وهو ضرب من ضروب الاستغفار، وأما الإنكار فمن سمات الفجار لا الأبرار.

٤٠١ ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾[يوسف:٩٧]:

اقتصروا على استدعاء الاستغفارِ، دون طلب الصفح من أبيهم، لأنهم كانوا على ثقة مِن عفوه وصفحه، لعلمهم برقة قلب الأب وشفقته بأبنائه.

٤٠٢ ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾[يوسف:٩٧]:

قال المهايمي: «صرَّحوا بالذنوب دون ذكر الرب: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره، وصرَّح يعقوب بذكر الرب دون (ذكر) الذنوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربّي بها الكل».

٤٠٣ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩٧]:

درس مؤلم تعلَّموه، وإلينا أهدوه: لا تقع في ما يوجِب عليك الاعتذار، وفي الحديث: «**إياك وكل ما يُعتَذَر منه**» السلسلة الصحيحة رقم: ٣٥٤ .

٤٠٤ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ [يوسف: ٩٧]:

فيه استحباب التبرك بدعوات الصالحين واستغفارهم.

٤٠٥ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٨]:

قال عبد الله بن مسعود: أخَّرَهم إلى السَّحر.

قال محارب بن دثار: كان عَمٌّ لي يأتي المسجد، فسمع إنسانًا يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحَر، فاغفر لي. قال: فاستمع الصوت، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: «إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السَّحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٩٨]».

٤٠٦ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٩٨]:

وعدهم بالاستغفار في المستقبل، أي سيلازم الاستغفار لهم الآن ومستقبلًا، إشارة إلى عظم الذنب الذي ارتكبوه، والدرس: بعض الذنوب يحتاج استغفارًا كثيرًا!

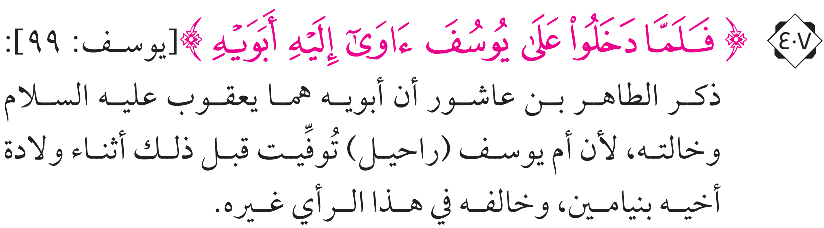


المقطع التاسع

اجتماع شمل العائلة

الآيات (٩٩ ـ ١٠٢)





٤٠٧ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾[يوسف: ٩٩]:
ذكر الطاهر بن عاشور أن أبويه هما يعقوب عليه السلام وخالته، لأن أم يوسف (راحيل) تُوفِّيت قبل ذلك أثناء ولادة أخيه بنيامين، وخالفه في هذا الرأي غيره.

٤٠٨ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾[يوسف: ٩٩]:
لم خصَّ الأبوين بالذِّكر؟! قال الآلوسي: «لأنهما ذاقا طعم مرارة الفراق، فخصَّهُما من بينهم بمزيد الدنو يوم التلاق».

٤٠٩ ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[يوسف: ٩٩]:
تأملوا أدب النبوة، فقد قدَّم مشيئة الله لأن الأمور كلها بيد الله، ولا بد للعبد أن يقدِّم المشيئة الربانية في الأمور كلها، وإلا وكله الله إلى نفسه، فأحاط به الفشل.

٤١٠ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾
[يوسف: ١٠٠]: قد يتأخر تأويل الرؤى عشرات السنين. قال ابن عباس: «كان بين رؤيا يوسف ومصير أبيه وإخوته إليه أربعون سنة».

٤١١ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾
[يوسف: ١٠٠]: يرى الصالحون كثيرًا من الرؤى المبشِّرة بتفريج الكرب ونزول النصر، فإذا تأخر الأمر دبَّ اليأس إلى القلوب، وتسلل الشك في الموعود، وننسى أن رؤيا يوسف تحققت بعد مضي عشرات السنين.

٤١٢ ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ ﴾[يوسف: ١٠٠]:





الحسود لا يسود!

قال القشيري:

«لما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يرضَ - سبحانه- حتى أقامهم بين يدي يوسف عليه السلام، وخرّوا له سجَّدًا ليعلموا أن الحسود لا يسود، ويقال: أطول الناس حزنًا من أراد تأخير من قدَّمه الله، أو تقديم من أخّره الله، فإخوة يوسف- عليه السلام- أرادوا أن يجعلوه في أسفل الجبّ فرفعه الله فوق سرير الملك».

٤١٣ ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾[يوسف: ١٠٠]:

قال الزركشي: «ولم يذكر خروجه من الجب، مع أن النعمة فيه أعظم، لوجهين:

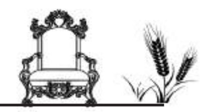
أحدهما: لئلا يستحيي إخوته، والكريم يغضي عن اللوم، ولاسيما في وقت الصفاء.

والثاني: لأن السجن كان باختياره، فكان الخروج منه أعظم، بخلاف الجب».

٤١٤ ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾[يوسف: ١٠٠]:

الإحسان (بالباء) يدل على شدة الملازمة والالتصاق، وهذا إقرار من يوسف بأن إحسان الله لم يفارقه لحظة من اللحظات، فصاحَبَه في حياته كلها منذ الرؤيا التي رآها، ثم إلقائه في البئر، وبيعه بثمن بخس، وخدمته في بيت العزيز، وصرفه عن فتنة امرأة العزيز، وحتى في دخوله السجن إلى أن صار عزيز مصر، وجمعه الله بأسرته، فقوله: ﴿ أَحْسَنَ بِىٓ ﴾ تدل على قرب المحسِن (الله) من المحسَن إليه (يوسف)، بعكس (أحسن إليك)، فتشعر





بتباعد ما بين (المحسِن) و(المحسَن إليه) كما قال الشيخ رشيد رضا؛ لذا استعملها مع قارون حين أنكر نعمة الله عليه، فقال: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] ليدل على بُعْد قارون عن الله، فكانت نعم الله عليه استدراجًا لا إكرامًا.

٤١٥ ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

قال العلامة القاسمي: «يُستدَلُّ به على أنَّ الانتقالَ من البدو نعمةٌ، وذلك لما يلحقُ أهلَ البادية من الجفاء، والبُعد عن موارد العلوم، وعن رَفاهة المدنيَّة، ولُطف المعاشرة، والكمالات الإنسانية».

٤١٦ ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾[يوسف: ١٠٠]:

وصف محاولات قتلهم له بأنها نزغات شيطان! نفوس كبيرة.

٤١٧ ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾[يوسف: ١٠٠]:

جعل نفسه طرفًا في الأمر، وساوى بين نفسه المجني عليها والجناة، مواساة لهم، وتلطفًا معهم!!

٤١٨ ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾[يوسف: ١٠٠]:

بدأ بنفسه وكأنه المذنب! فما أرق مشاعره، وأنبل أخلاقه!

٤١٩ ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾[يوسف: ١٠٠]:

لا يلمح لطف الله إلا من نظر في حكمة الله، وأيقن أن قضاءه كله خير.

٤٢٠ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[يوسف:١٠١]:

التحدث بنعمة الله مستحب، بشرط ألا يصاحبه كِبر أو فخر أو رياء، وقد حدَّث النبي ﷺ بنعم الله عليه، فقال:

«إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر، وأُعْطَى لواء الحمد ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة



ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر، وإني آتي باب الجنة فآخذ بحلقها». صحيح الجامع رقم: ١٩١

٤٢١ ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]:

تواضع يوسف! وهو الذي لم تعرض له رؤيا إلا أوَّلها، ومع هذا يُعلِن أنه لا يعلم إلا بعض علم التأويل، فقوله: ﴿مِن﴾ للتبعيض، وهو من أدب النبيين أثناء مناجاة الرب العظيم.

٤٢٢ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١]:

هذه أسمى أمنيات الأنبياء، ومع هذا فلا تخطر على بال كثير من الخلق!

٤٢٣ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١]:

رُوِي في تفسير البغوي أن يعقوب قال للبشير حين جاءه بقميص يوسف: كيف تركت يوسف؟

قال : إنه مَلِك مصر .

فقال يعقوب: ما أصنع بالمُلْك؟! على أي دين تركته؟

قال: على دين الإسلام.

قال: الآن تمت النعمة.

٤٢٤ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١]:

هذه دعوة يوسف عليه السلام بعد أن تربع على عرش مصر وملك خزائنها، دلالة على زهده في الملك، وشوقه إلى لقاء الرب، وإيثار الدار الآخرة.

٤٢٥ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١]:

الامتحان الأخير! قال السعدي: «أي: أدِم عليَّ الإسلام وثبِّتني عليه حتى تتوفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت».

٤٢٦ ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]:
وكأن الصالحين سبقوه، وهو يريد اللحاق بهم، فما أعظم التواضع!

٤٢٧ ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]:
من آداب الدعاء! انظر كيف قدَّم يوسف الثناء على الدعاء، وهذا من الأدب النبوي الذي يوفق الله إليه من اصطفى من عباده ورضي عنه من أوليائه.

٤٢٨ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]:
نبأ يوسف غيب لم تكن لتعرفه يا محمد إلا بالحضور والمشاهدة أو عن طريق الوحي، وبما أنك لم تحضره، فما هو غير الوحي أخبرك به، وليس المراد نفي حضور النبي ﷺ مشهد المكر بيوسف فقط، بل نفي حضوره سائر المشاهد، لكنه خصَّ مشهد المكر بالذكر لأنه أخفى المشاهد وأولها.

٤٢٩ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]:
قال الطاهر بن عاشور: «وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصة، وفيها منة على النبي ﷺ، وتعريض بالمشركين بتنبيههم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي، فإن صدور ذلك من النبي ﷺ الأمي آية كبرى على أنه وحي من الله تعالى، ولذلك عقَّب بقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]».

المقطع التاسع

خلاصة العِبَر من أحلى السور

الآيات (١٠٣ ـ ١١١)

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ





٤٣٠ ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[يوسف: ١٠٣]:

قال الآلوسي ما ملخصه:

سألت قريش واليهود رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فنزلت مشروحة شرحًا وافيًا، فأمَّل النبي ﷺ أن يكون ذلك سببًا في إسلامهم، فلما لم يفعلوا حزن ﷺ، فعزَّاه الله تعالى بذلك.

٤٣١ ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[يوسف: ١٠٣]:

كثير من الناس لن يَصِلوا إلى ساحل الإيمان، ولو حرص خير المرسلين على أن يكونوا مؤمنين، وفي هذا تسلية لكل داعية أعرض عنه المدعوّين، أن هذا ميراث الأنبياء والمرسلين.

٤٣٢ ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[يوسف: ١٠٣]:

الاستدلال على صحة مذهب أو حزب أو جماعة بكثرة الأتباع فقط خطأ بالغ، فالكثرة غالبًا ما تميل إلى غير الحق.

٤٣٣ ﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾[يوسف: ١٠٤]:

الداعية الذي يقصد التربح من وراء دعوته يسقط سقوطًا مريعًا من أعين الناس.

٤٣٤ ﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾[يوسف: ١٠٤]:

عفاف الدعاة! قال بعض اليمانين: «في الآية دليل علي أن من تصدَّر للإرشاد، من تعليم ووعظ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه».

٤٣٥ ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾[يوسف: ١٠٥]:



من أغمض عينيه لم يستمتع بضوء نهاره، وكذلك من قصَّر في تفكره واعتباره لم يحظ بكنز عرفانه واستبصاره.

٤٣٦ ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[يوسف: ١٠٦]:

قال القشيري: «الشِّرك الجليُّ أن يتَّخِذ من دونه -سبحانه- معبودًا، والشِّرك الخفي أن يتخذ بقلبه عند حوائجه من دونه -سبحانه- مقصودًا».

ومن الشرك الخفي ما قاله الحسن في هذه الآية: «ذاك المنافق، يعمل إذا عمل رئاء الناس، وهو مشرك بعمله».

٤٣٧ ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[يوسف: ١٠٧]:

يقول إسماعيل حقي:

«فإن قيل: أما يؤدي قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مؤدَّى قوله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فيُستغنى عنه؟!

قيل: لا، فإن معنى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: وهم غافلون؛ لاشتغالهم بأمور دنياهم، وفي الحديث: (موت الفجأة أخذة أسيف) أي غضبان، يعني موت الفجأة أثر غضب الله على العبد، والفجاءة أو الفجأة هي البغتة دون تقدم مرض ولا سبب، وإنما كُره (موت الفجأة) لئلا يلقى المؤمن ربه على غفلة من غير أن يقدِّم لنفسه عذرًا، ويُجدِّد توبته، ويرُدَّ مظالمه».

٤٣٨ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾

[يوسف: ١٠٨]: استدلوا بهذه الآية على وجوب الدعوة إلى الله، فقالوا: حقٌّ على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويُذكِّر بالقرآن.



٤٣٩ ﴿ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

كثير من إعراض الخلق هو من ضعف بصيرة الدعاة! قال الإمام البقاعي: «﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ أي حجة واضحة من أمري بنظَري الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وترك التقليد الدال على الغباوة والجمود».

٤٤٠ ﴿ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

يقول الشيخ محمد الغزالي: «أنا لا أخشى على الإنسان الذى يفكِّر وإن ضلَّ؛ لأنّه سيعود إلى الحق، ولكني أخشى على الإنسان الذي لا يفكّر وإن اهتدى، لأنّه سيكون كالقشة في مهب الريح».

٤٤١ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾[يوسف: ١٠٩]:

قال القرطبي:

«من أهل القرى: يريد المدائن، ولم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو، ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن: لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن».

٤٤٢ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ ﴾[يوسف: ١٠٩]:

عبادة التفكر أجلُّ العبادات، وهي تاج عبادات القلوب، وإن آثار الأمم البائدة يقدح زناد الفكر للاعتبار، وعدم السقوط في نفس الأخطاء والتكرار، وهذه من سمات العقلاء فضلًا عن الأبرار.

٤٤٣ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠]: أفضل ما قيل في هذه الآية هو قول عائشة رضي الله عنها: معاذ الله! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، فقال لها عروة بن الزبير: فما هذه الآية؟!

قالت عائشة: «هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم، وصدَّقوهم، وطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذَّبهم من قومهم، وظنَّت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك».

٤٤٤ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[يوسف: ١١٠]:

قال صاحب الظلال:

«تِلك سُنَّةُ الله في الدَّعوات؛ لا بُدَّ مِن الشَّدائِدِ، ولا بُدَّ مِن الكُروب، حتَّى لا تَبْقى بقيَّةٌ مِن جُهْدٍ، ولا بقيَّةٌ مِن طاقة، ثمَّ يجيءُ النَّصرُ بعدَ اليأْسِ مِن كلِّ أسبابِه الظَّاهرةِ الَّتي يَتعلَّقُ بها النَّاس، يجيءُ النَّصرُ مِن عِندِ الله، فينجو الذين يستحِقُّون النَّجاة؛ ينجون مِن الهلاك الذي يأخُذ المُكذِّبين، وينجون مِن البَطْش والعَسْف الذي يُسلِّطه عليهم المُتجبِّرون، ويَحِلُّ بأس الله بالمجرِمين، مُدمِّرًا ماحِقًا، لا يقِفون له، ولا يَصدُّه عنهم وليٌّ ولا نصير؛ ذلك كي لا يكون النَّصر رخيصًا، فتكون الدَّعواتُ هَزْلًا، فلو كان النَّصر رخيصًا لقام في كلِّ يوم دَعِيٌّ بدَعوةٍ لا تكلِّفُه شيئًا، أو تكلِّفُه القليل».

٤٤٥ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾[يوسف: ١١٠]:

لا يوجد أداة عطف بين (كُذِبُواْ) و (جَآءَهُمۡ) إشارة إلى نزول النصر فورًا، وبلا تريث أو تأخير.

٤٤٦ ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[يوسف: ١١١]:

قال القشيري:

«عِبْرة منها للملوك فى بسط العدل كما بسط يوسف عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم.

وعِبْرة فى قصصهم لأرباب التقوى، فإن يوسف لمّا ترك هواه رقّاه الله إلى ما رقّاه.

وعِبْرة لأهل الهوى فيما فى اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما اتبعت هواها لقيت الضر والفقر.

وعِبْرة للمماليك فى حضرة السادة، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مُلِّك مُلْكَ العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالًا.

وعِبْرة فى العفو عند المقدرة، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته.

وعِبْرة فى ثمرة الصبر، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يومًا بلقاء يوسف عليه السلام».

٤٤٧ ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ﴾ [يوسف: ١١١]:

ما الفائدة من أي قصة إن لم نأخذ منها العبرة؟! والعِبرة مشتقة من عبور البحر، فكأن قارئ التاريخ يعبر إلى أحداثه ليرجع منها بالدروس التي تنفعه في حاضره ومستقبله،

ومعلــوم أن التاريــخ يعيــد نفســه.

٤٤٨ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ [يوسف: ١١١]:

لـن تعيـش مئـات الأعـوام، لكنـك تسـتطيع الحصـول عـلى خـبرة مئـات الأعـوام، وذلـك بالنظـر في قصـص السـابقين وتجـارب الماضيـن، وصـدق الشـاعر:

ليس بإنسانٍ ولا عاقل .. من لا يعي التاريخ في صدره
ومن درى أخبار من قبله .. أضـاف أعـمارًا إلى عمـره

٤٤٩ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف: ١١١]:

ليـس هـدى ورحمـة للجميـع، بـل للمؤمنـين فحسـب؛ ولـذا لا ينتفـع الجميـع بالقـرآن، فمـن لا يفهـم مـا يقـرأ ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[الجمعـة : ٥]، والبعـض كالحـمار الوحـشي يهـرب مـن القـرآن إذا سـمِعه ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر : ٥٠].. أمثال هؤلاء لا يهتدون بالقرآن.

٤٥٠ **خلاصة الخلاصة! قال ابن الجوزي:**

«قـرأْتُ سُـورةَ يوسُـفَ عليـه السَّـلامُ، فتعَجَّبْـتُ مِـن مدحـه عليـه السَّـلام عـلى صَـبْرِه، وشَرْحِ قصَّتـه للنَّـاس، ورَفْـع قـدْرِه بـترك مـا تـرك، فتأمَّلْـتُ خبيئـة الأمـر فـإذا هـي مُخالفـةٌ للهـوى المكـروه، فقلـتُ: واعجبًـا! لـو وافق هـواه، من كان يكـون؟! ولَمَّـا خالفه لقـد صـار أمـره عظيـمًا؛ تُـضْرَب الأمثـال بصـبره، ويُفْتَخَـر عـلى الخلـق باجتهـاده، وكلُّ ذلـك قـد كان بصـبر سـاعة، فيـا لـه عِـزًّا وفَخْـرًا أن تملـك نفسـك سـاعة الصَّـبر عـن المحبـوب وهـو قريـب».



يا يوسف هذه الأحلام..

مزِّق أوهام الضعف والاستسلام
وكن دواءَ ما أصاب أمتنا من أحزان وآلام..
كل الإنجازات العظيمة بدأ بحلم من الأحلام..
وبالإيمان والمثابرة صارت حقيقة
بعد أن ظنها كثيرون وهمًا من الأوهام.
أحلام اليوم حقائق الغد.
فعِش أحلامك ثم حققها؟
وحدِّد آمالك ثم أنجِزْها.
قد سبقك في هذا الميدان من لا يؤمن بإله..
ولا يرجو جنة ولا رضا مولاه
فكيف التأخر يا خاطب الجنة وطالب الرضوان؟

الفهرس